الاستشراق في الميزان

الطبعة الأولى يناير 2014
رقم الإيداع: 23843/ 2013
الترقيم الدولي: 978-977-6426-46-7
تصحيح لغوي: محمود الغنام
تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف

جَميعُ حُقوقُ الطَبْعُ والنَّشرْ محفُوظة
© دار دَوِّنْ

18 شارع محي الدين أبو العز - الدقي
تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

الاستشراق في الميزان

أ.د/ عبد العظيم الديب

أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول
بجامعة قطر (سابقاً)

دار دَوِّن للنشر والتوزيع

القسم الأول

المستشرقون والتراث

مدخل إلى القضية

ربما كان المدخل الصحيح لتقييم عمل المستشرقين ودَوْرِهم في مجال تراثنا هو الإجابة عن هذه الأسئلة:

- كم كان حجم تراثنا؟ بمعنى: كم كان يُقدر عدد الكتب التي تصلنا لو لم يقدر له أن يَلقى ما لقي، من تحريق وتغريق وسطو وابتزاز وإهمال وتهاون؟
- ثم كم بقي لنا بعد ذلك كله؟
- ثم كم منه في أيدينا الآن؟
- وكم في أيدي المستشرقين؟
- وماذا صنعنا بما في أيدينا؟
- وماذا صنع المستشرقون بما في أيديهم؟
- وكم حُقِّق ونُشر منه؟
- وكم حقَّقنا؟
- وكم حقق المستشرقون؟

أعتقد أن الإجابة الدقيقة المحددة عن هذه الأسئلة هي التي تعطي الصورة الصادقة، والحكم الصائب على عمل المستشرقين، ما دمنا بصدد تقييمه ووضعه في مكانه، وإعطائه قدره.

ومع أنَّ هذه الأسئلة في جملتها تبدأ بـ(كم) أي تحتاج إلى إجابة رقمية محددة، فإننا لا نملك إلا إجابة تقريبية عن بعضها، وعن بعضها الآخر لا نملك إجابة أصلاً، وعن بعض ثالث يستحيل أن نملك إجابة، فمن يستطيع أن يُقدِّر لنا حجم تراثنا كله، لو لم يصبه ما أصابه؟ إن ذلك فوق كل حدْسٍ وأبعد من كل تخمين.

إن ما ضاع من تراثنا لا يمكن بحال أن يخضع لتقدير، فمن يستطيع أن يقدر عدد المجلدات التي صنعت الجسر، بل السَّد الذي عبرت عليه خيولُ هولاكو وجنوده بين شاطئ دجلة، ومن الذي يستطيع أن يُحصي ما حرَّقه الصليبيون في حملاتهم التي جاءت في موجاتٍ متتالية مثل موجات التتار، وأشد فتكًا، وظلت نحو مائتي سنة تتشبث بمواطئ أقدامها، وبالإمارات التي اتخذتها رؤوس جسور لاجتياح بلاد الإسلام جملة، وكانت الكتب والمكتبات طوال هذه المعارك هدفًا مقصودًا للصليبيين حينًا، ووقودًا للنيران الطائشة حينًا آخر، وإن ما أصاب القدس، وطرابلس وعسقلان، وغزة ، والمعرّة، وغيرها من المدن تدميرًا وإهلاكًا وإحراقًا، كيف يبقي على مكتباتها؟ وبحسبنا أن نذكر أن "بعض المؤرخين قدّر ما أتلفه الصليبيون في (طرابلس) وحدها بثلاثة ملايين مجلد"[1].

ويحدثنا التاريخ "أن أحد الأطباء رفض دعوة سلطان بخارى للإقامة في بلاطه؛ لأنه يحتاج إلى أربعمائة بعير لنقل مكتبته"[2].

---

[1] الدكتور مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا: 162.

[2] جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي: 384.

فإذا كانت الكتب في مدينة واحدة (طرابلس) نحو ثلاثة ملايين، والكتب التي في مكتبة خاصة لواحد من الأطباء تبلغ حملَ أربعمائة بعير، فكم يبلغ ما كان في المدن الإسلامية كلها؟ وما كان في المكتبات الخاصة كلِّها؟ فإذا كان هو حجم التراث، وكان الباقي منه نحو ثلاثة ملايين مخطوطة فقط، فإذا عرفنا ما بقي بأيدينا وما بقي بأيدي المستشرقين، وما نشرناه وما نشره المستشرقون، وماذا نشروه من التراث؟ وماذا نشروه؟ وكيف نشروه؟

إذا عرفنا ذلك نستطيع أن نفصل في القضية، وأن نقدر للقوم عملهم حق قدره، لا ننقُصهم ولا نبخسهم ولا نزيدُهم ولا نمجدهم، بدعوى (الاعتدال) و(الإنصاف) أو تغطية لشعور العجز والهوان.

وسنحاول في الصفحات القادمة أن نقدم نموذجًا لهذه الدراسة علَّها تكون خطوة على الطريق، نحو الحكم (المنهجي) (العلمي) (الموضوعي) على عمل المستشرقين ودورهم في التراث.

اتجاهاتُ النشر عِندَ المستشرقين

للآن -فيما أعلم- ليس لدينا دراسةٌ دقيقة تقوم على حصر أعمال المستشرقين، في مجال تحقيق التراث ونشره، ونحن -لا شك- أحوج ما نكون إلى هذه الدراسة، بل نراها تأخرت طويلاً، وإلى أن تتم سيظل الحديث في هذا المجال (عمل المستشرقين) يقوم على الحدس والتخمين، ويعتمد على ملاحظات سريعة، ويتأثر بأهواء مزاجية وصلاتٍ شخصية ومواقف نفسية تجذبه من يمين ويسار.

وحينما نقوم بهذه الدراسة -إن شاء الله- نستطيع أن نرى في ضوئها ما يلي:

أولاً: عدد الكتب التي أخرجها المستشرقون بجهودهم العلمية، وتحديد (الكم) الذي قاموا بخدمته من تراثنا، ويتبع ذلك وينبني عليه بيان نسبة عملهم إلى مجموع ما تم نشرُه، فيتحدد بالضبط المقدارُ الذي أسهموا به في نشر تراثنا، فلا نغمطهم فضلهم -إن كان لهم فضل- ولا ننسب إليهم ما لا يستحقون استجابة لعُقدة الهوان، ومركّبات النقص التي سيطرت على كثيرين ممن سمَّوْا أنفسهم وأسمتهم أجهزةُ التضليل (قادة الفكر).

ثانيًا: معرفة اتجاهات النشر لدى المستشرقين، بمعنى أن نعرف الكتبَ التي تحظى باهتمامهم، وتجذب انتباههم، من أي لونٍ هي، ومن أي فرعٍ من فروع

المعرفة، وما قيمتها في هذا الفن، ثم ما علاقتها بما ينشرونه من فنون أخرى.

ثالثًا: درجة الدقة والإتقان في هذه الأعمال، بل درجة الصحة والصواب، وماذا فيها من خلل أو زلل نتيجة للعجز عن إدراك سر العربية، وامتلاك ذوقها[1] والعجز عن ستكناه سرّ التراث واستلهام روحه الرباني الإلهي.

بل ماذا فيها من خلل أو زلل نتيجة للأحكام المسبَّقة، والمواقف غير المحايدة، بل العدائية التي تدعو إلى تعمد التشويه والتحريف[1].

وعند ذلك تفرغ الأمة من هذه القضية ويصدر الحكم فيها بالأدلة الدامغة، والحقائق الثابتة، فننتهي منها ومن اللجاجة حولها ونفرغ لما سواها.

نموذج:

وقد حاولت إجراء نموذج مصغر لهذه الدراسة، لا يشمل عمل المستشرقين كلَّه -كما نرجو- وإنما شمل شريحة، أو قدرًا لا بأس به من أعمالهم، ويتمثل هذا القدر في مجموعتين، من مجموعات المخطوطات المطبوعة:

---

[1] كتب شيخ المستشرقين الروسي وأقدرُهم بإطلاق (كراتشوفسكي) في يناير سنة 1909م وهو في بيروت إلى شقيقته يقول لها: "إن اللغة العربية تزداد صعوبة، كلما ازداد المرء دراسة لها" (راجع المقدمة التي كتبتها زوجته لكتابه مع المخطوطات العربية) ترجمة الدكتور محمد منير مرسي.

وما باللغة العربية من صعوبة، وكيف تزداد صعوبة مع الأيام كلما ازداد دراسة لها؟! إن الصعوبة في إدراك سر اللغة وامتلاك ذوقها، هذا هوالذي يعز على هذا المستشرق وأمثاله الذين لا ينشئون نشأة عربية، ولم يأخذوا اللغة العربية مأخذ الذين يتعربون من المسلمين فيُشربون حبّها وذوقها في قلوبهم.

[1] نعني بذلك ما قد يكون من قصور في قراءة النصوص التراثية التي نشروها، أو في تعليقاتهم عليها أو في المقدمات والدراسات التي يلحقونها بها.

الأولى: معجم المخطوطات المطبوعة: (المجدات الثلاثة الأولى) وهو من عمل الدكتور صلاح الدين المنجد[2].

الثانية: ذخائر التراث العربي: (الجزء الأول) وهو من عمل الدكتور عبد الجبار عبد الرحمن[3]. وكان ذلك على النحو التالي:

الأول: بالنسبة لمعجم المخطوطات المطبوعة اتبعتُ الخطوات الآتية:

1- أحصيت كل المخطوطات المنشورة فكانت النتيجة كالآتي:

في الجزء الأول: 414 أربعة عشر وأربعمائة (عنوان) ما بين كتاب، وجزء من كتاب، ورسالة صغيرة.

وذلك في الفترة من (1954 – 1960م) سبع سنوات.

في الجزء الثاني: 352 اثنان وخمسون وثلاثمائة (عنوان) ما بين كتاب، وجزء من كتاب، ورسالة صغيرة.

وذلك في الفترة من (1960 – 1965م) خمس سنوات.

في الجزء الثالث: 430 ثلاثون وأربعمائة (عنوان) ما بين كتاب، وجزء من كتاب ورسالة صغيرة.

وذلك في الفترة من (1966 – 1970م) خمس سنوات.

---

(2) طبع دار الكتاب الجديد، بيروت، (طبعة ثانية) الجزء الأول 1398هـ -1978م. الجزء الثاني 1400هـ -1980م والجزء الثالث 1983م، وعلمت أنَّ هناك جزءًا رابعًا لكن لم نستطع الوصول إليه للآن.

(3) مرتب على حروف الهجاء بأسماء المؤلفين، يشمل الجزء الأول من حرف (أ – ش) في نحو 660 صفحة، نشر جامعة البصرة، سنة 1981م.

2- أحصيت ما قام بنشره المستشرقون في كل جزء فكانت النتيجة كالآتي:

في الجزء الأول (58) عنوانًا: صرفنا النظر عن بعض الأعمال التي لا تعدو بضع صفحات.

في الجزء الثاني (17) عنوانًا: صرفنا النظر عن بعض الأعمال التي لا تعدو بضع صفحات.

في الجزء الثالث (18) عنوانًا: صرفنا النظر عن بعض الأعمال التي لا تعدو بضع صفحات.

3- وعلى ذلك تكون النسبة المئوية لما نشره المستشرقون إلى ما نشرناه كالآتي:

في الجزء الأول 14%.

في الجزء الثاني 4%.

في الجزء الثالث 4%.

ويكون متوسط النسبة بين الأجزاء كلها هو 7%.

بالنظر إلى* هذه النتائج نلاحظ أن الفرق شاسعٌ بين الجزء الأول والجزأين الثاني والثالث، حيث ترتفع النسبة إلى أكثر من ثلاثة أمثال. والأمر في حاجة إلى تفسير أو تعليل، لا نعدو الصواب إذا أرجعناه لما يلي:

1) نحن نعتقد أن (للزمن) دخلاً في ذلك، حيث اختص الجزء الأول بفترة السنوات السبع من أول سنة 1954م إلى آخر سنة 1960م، وهي ما بعد سنوات الحرب والتعمير، ذلك أن فترة الحرب العالمية الثانية، التي انتهت سنة 1945م، وما تلاها من مرحلة بناء، [وكانت أشد وأقسى من

سنوات الحرب ذاتها] كانت فترة خمود وركود. أعني أن عمل المستشرقين توقف أو كاد في أثناء الحرب وما تلاها من مرحلة بناء، فلما استقرت الأمور، وبدأ رجال الاستشراق يعودون لمؤسساتهم ومواقعهم، كان لديهم عندما عادوا رصيد من الأعمال توقف نشرُه، فأضفوه إلى ما جدَّ من عمل ووُلد من نتاج، فكان ذلك هو السبب في تضاعف نسبة أعمالهم في هذه الفترة التي أعقبت فترة الحرب والتعمير.

ولعلَّ ما يؤيدنا في ذلك ما ذكره نجيب العقيقي (وهو واحد منهم)[1] حيث قال: "وأصيب نشاط لجنة دائرة المعارف الإسلامية بعد الحرب بشيء من الاضطراب، وقُضي على بعض أعضائها في ساحتها، ثم استأنفت من بعدُ نشاطها"[2].

ويلفت نظرنا في عبارته، قوله: "بعد الحرب" مما يؤكد ما قلناه من أن فترة ما بعد الحرب كانت فترة شدة وَجهد، لا تقل عن فترة الحرب ذاتها.

كما يلفت النظر أيضًا قوله: "وقُضي على بعض أعضائها في ساحتها". فهذا يؤكد ما سنقوله من علاقة المستشرقين بوزارات المستعمرات، وأنهم كانوا طلائع الغزو الاستعماري، وأنهم كانوا في قلب معارك بلادهم وحروبها.

2) ونستطيع أن نضيف عاملاً آخر، وتفسيرًا آخر لنقص إنتاجهم، وهو أن سنة 1960م هي السنة التي أعلنتها الأممُ المتحدةُ سنة إنهاء

---

[1] انظر كتابه (الاستشراق والمستشرقون) حيث يتحدث عن المدرسة المارونية ضمن مدارس الاستشراق، ويجعل نفسه واحد من رجال المدرسة المارونية.

[2] الاستشراق والمستشرقون: 1108.

الاستعمار[3]، وبعدها اختفت من نظم السياسة (وزارات المستعمرات)، وكما هو مقرر ومعروف للجميع، كانت هذه الوزارات هي الملجأ الأول الذي يعيش في كنفه الاستشراق، ويرعى حركته.

فلما زالت هذه الوزارات أو ضعف شأنها فقدت حركةُ الاستشراق أكبر مُعين لها، وتحول من كان في كنفها من المستشرقين إلى ما بقي من أوكار التبشير والاستخبارات، والمراكز الاستشارية ونحوها.

فكانت هذه الهزة سببًا -فيما نقدرُ- لهذا الانخفاض الواضح في إسهامات المستشرقين.

3) كم كنَّا نتمنى أن نقول: إن انخفاض نسبة أعمال المستشرقين هذا جاء نتيجة لزيادة أعمالنا، وثمرة لكثرة إنتاجنا نحن في هذا المجال، بمعنى أن (حجم) عمل المستشرقين بقي كما هو، لكن بسبب ازدياد نشاطنا وجهودنا بدا عملهم ضئيلاً وجهدهم قليلاً.. نعم كنا نتمنى أن نقول ذلك، ولكن هذا لا يستقيم، ولا يكون صحيحًا بسبب ما هو واضح من مجرد النظر إلى العدد الكلي في الفترات الزمنية الثلاث التي كانت موضع الدراسات، فالتفاوت بينها يسير.

ويمكن التعبير عن ذلك بالأرقام بصورة أكثر وضوحًا هكذا:

- 60 كتابًا: (متوسط العدد الكلي في السنة الواحدة من الفترة الأولى: 1954 – 1960م).
- 70 كتابًا: (متوسط العدد الكلي في السنة الواحدة من الفترة الثانية: 1961 – 1965م).

---

(3) انظر حقائق أساسية عن الأمم المتحدة ص173، أصدرته إدارة الإعلام العام بالأمم المتحدة – طبع بمطابع الشعب بالقاهرة سنة 1980م.

- **80 كتابًا: (متوسط العدد الكلي في السنة الواحدة من الفترة الثالثة: 1966 – 1970م).**

ونسبة ما يخص المستشرقين في كل سنة من السنوات كالآتي:

- **8.2 كتابًا في السنة الواحدة من الفترة الأولى.**
- **3.4 كتابًا في السنة الواحدة من الفترة الثانية.**
- **3.6 كتابًا في السنة الواحدة من الفترة الثالثة.**

وبذلك يتأكد تمامًا انخفاض إنتاج المستشرقين منذ سنة 1960م. كما يتضح أن هناك زيادة في معدل إسهامنا وإنجازنا -نحن المسلمين- في هذا المجال، إلا أنها -كما أشرنا آنفًا- زيادة طفيفة، لا تتناسب مطلقًا مع ازدياد عدد الجامعات والخريجين، وعدد المؤسسات العلمية، ومراكز البحوث، والهيئات العاملة في مجال خدمة التراث ولا مع معدل الثراء والرخاء، الذي حظي به العالم العربي، ولا مع هذه الصحوة الإسلامية الفكرية الرشيدة، التي يموج بها العالم الإسلامي اليوم.

ثانيًا: بالنسبة لكتاب ذخائر التراث للدكتور عبد الجبار عبد الرحمن، فهو قد حدد مجال عمله بقوله: "يحاول هذا الكتاب -جهد المستطاع- حصر وتسجيل ما طُبع من المخطوطات التي صنفها المؤلفون العرب والمسلمون في شتى فنون العلم والمعرفة منذ بدء التدوين إلى نهاية القرن الثاني عشر الهجري[1]، سواء ما أخرجته المطابع الشرقية، أو الغربية، وما حققه ونشره المستشرقون أو الشرقيون، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين"[1].

---

[1] أضاف المؤلف هامشًا هنا أنه "ركز على مؤلفات القرون العشرة الأولى، ولا يتعرض بعدها إلا للمؤلفات البارزة". كذا قال.

[1] انظر، ص10.

أي أنه معجم للمخطوطات المطبوعة منذ بدأت الطباعة على أن تكون هذه المخطوطات من عمل ونتاج القرون العشرة الأولى من الهجرة، كما جعل سنة 1980م حدًّا ينتهي إلى الكتب التي طُبعت عنده.

ولم يصل إلى بلدنا للآن إلا الجزء الأول، وقد أجرينا الإحصاء بطريق العينة العشوائية، فاخترنا عددًا متساويًا من الصفحات من كل مائة بدون ترتيب، فحصلنا على ست وخمسين صفحة، بواقع ثماني صفحات من كل مائة، من المئات السبع.

ثم أجرينا باقي العمليات الإحصائية بالطريقة السابقة نفسها:

1- حصرت عدد المؤلفات المنشورة في هذه الصفحات، فكانت 320 عشرين وثلاثمائة كتاب.

2- أحصينا ما قام بنشره المستشرقون فكانت النتيجة 32 كتابًا اثنين وثلاثين كتابًا.

3- وعلى ذلك تكون النسبة المئوية 10% عشرة في المائة.

ويلاحظ أن هناك تفاوتًا بين هذه النتيجة والنتائج السابقة، بمعنى أنها في الواقع تسجل زيادة وارتفاعًا في النسبة، حيث كان متوسط الأجزاء الثلاثة في معجم صلاح الدين المنجد 7%.

وتستطيع في النهاية أن تخرج بالنتائج الآتية:

1- أن معدل إسهام المستشرقين وإنتاجهم سجل هبوطًا ملحوظًا منذ مطلع الستينيات ولا يزال مستمرًا.

2- أنه كانت هناك طفرة في السنوات التي تلت انتعاش الغرب بعد الحرب العالمية الثانية.

3- أن نسبة الـ10% تعتبر مؤشرًا صادقًا إلى حد ما، لمتوسط إنتاج المستشرقين. بالنسبة لمجموع ما نشر من مخطوطات منذ الطباعة للآن.

تحفُّظ:

ولنا أن نتحفظ على هذه النتيجة (مؤقتًا) إلى أن يتم الحصر الشامل الكامل لجميع المخطوطات المطبوعة، وما قام به المستشرقون منها.

بل سيظل هناك شيء من التحفظ [ولو تم الحصر الشامل]، ذلك أن النسبة التي ستفلت من الحصر (وهذا شيء متوقع بل مقطوع به) سيكون أكثر من عملنا، وبالذات من نشر الأفراد (العمل الشخصي)، ذلك أن المستشرقين يُحسنون تسجيل أعمالهم وجدْوَلتها، والنشر عنها، والإعلامَ بها ونحن نحسن استقبالها والتنويه بها، أما جهود الأفراد بل والهيئات الإسلامية، فيقيني أن قدرًا لا بأس به من عملها سيظل خارج الإحصاء والحصر، وعندها يبدو عمل هؤلاء أكبرَ من حجمه، وأكثر من واقعه.

الاتجاه الفكري للمستشرقين

في ضوء هذه الدراسة السابقة رأينا إسهام المستشرقين من حيث (الكم والحجم) ونسبته إلى عملنا، أما من حيث اتجاهاتهم الفكرية، التي يمثلها ويكشف عنها اختياراتُهم، فقد أجرينا دراسة إحصائية على المجموعات السابقة من الكتب نفسها، وكانت النتيجة كما يلي:

أولاً: بالنسبة لما هو منشور في معجم الدكتور المنجد:

[الفن]	عدد الكتب	النسبة المئوية
التصوف والفلسفة وعلم الكلام	40	%43
التراجم والتاريخ	28	%30
تفسير	2	%2,1
لغة ونحو	3	%3,2
أدب	3	%3,2
بلاغة	3	%3,2
رحلات وجغرافيا	4	%4,3
شعر وطرائف	3	%3,2

فقه	4	%4,3
علوم	3	%3,2
	93 كتابًا	%99,7

ولا تختلف الاتجاهات كثيرًا بالنسبة لما هو منشور في (ذخائر التراث)، حيث تتوزع الكتب على النحو التالي:

[الفـن]	عدد الكتب	النسبة المئوية
التصوف والأخلاق	4	%12,5
الديانات (مقارنة ونقد)	2	%6
عقيدة وكلام	2	%6
تاريخ	7	%21
تراجم	3	%9
سيرة	1	%3
تفسير	1	%3
حديث	1	%3
أدب	2	%6
شعر	3	%9
لغة ونحو	3	%9
	32 كتابًا	%98.0

هناك كسور طفيفة تكمل بمجموعها المائة 100%.

ويجب أن ننبه هنا إلى ما يلي:

(أ) أنه قد يخالفنا مخالف في هذا التوزيع، ومرجع ذلك أن هذه المؤلفات القديمة، قد يتنازعها أكثر من فنّ من فنون المعرفة. وتصلح للانتساب لكل منها، بما حوته من موضوعات، ومن حيث الزاوية التي ينظر منها الناظر إليها، ومن حيث الاعتبار الذي يعتبرها به، فالكتاب في حياة أحد أئمة التصوف (مثلاً) قد يصنَّف في التراجم. وقد يصنف في التصوف، بالنظر إلى ما حواه من مذهب الرجل وفكره.

وما برح مفهرسو الكتب يختلفون (أحيانًا) في الفن الذي يضعون تحته هذا الكتاب، أو ذاك، ومعلوم للجميع (بطاقة الإحالة) حيث يصنف الكتاب في فن من الفنون ويشار إليه، ويحال عليه في الفن الآخر الذي يمكن أن يحتويه أيضًا.

(ب) أن هذا التوزيع -على قوة دلالته- ليس كافيًا لتوضيح اتجاهات النشر عند القوم، فلا بد أن نرى أيَّ كتب في الفقه ينشرون، وأيَّ كتب في التاريخ، وأيَّ كتب في الفلسفة، فليس كل فقه ولا كل تراجم ولا كل تاريخ يكون كافيًا باسمه وعنوانه، و(صنفه).

ولعل هذه النتائج ليست في حاجة إلى نظر أو تأمل، فهي تنطق باتجاهات القوم في النشر بوضوح، وتكشف عن أهدافهم بجلاء، فالتصوف والفلسفة وعلم الكلام (وهو الاتجاه الأول عندهم) ليعرفوا السلوك، والفكر، والعقيدة، ويا ويل من عرف عدوُّه سلوكه ونفسَه، وحقائق فكره، ومناحيَ آرائه، ومكامن عقيدته، وخفايا قلبه.

فهذا الولوع العجيب الغريب بدراسة هذه العلوم ونشر مؤلفاته لا تفسير له إلا في ضوء أهدافهم، فهم يتعرفون على هذا اللون من الفكر ويتبعون

شطحاته وانحرافاته، وكيف تقعد بالناس عن الجهاد، بل عن العمل -أي عمل- ويرون كيف يقوم لهم هذا -إذا روّجوه- بمهمة أكبر من مهمة الجيوش، إذ يشُلُّ حركة الأمة ويُقعدها عن المقاومة، بل يزين لها الاستسلام.

ومن أراد دليلاً على ذلك، فلينظر في تاريخ الجزائر، ليرى كيف قاوم (الطُّرقيون) المتصوفون حركة ابن باديس (الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية) وهي حركة دينية إسلامية واعية، داعية لحفظ الذات، وصيانة الهُوية، ثم إلى المقاومة الجادة الثابتة، والوقوف في وجه (فرْنَسة) الجزائر، ومسخا، وكيف كان لدراسات المستشرقين، ومطبوعاتهم أثر في هذا التوجيه الاستعماري الخبيث (للطرقيين) واستخدامهم ضد المجاهدين والوطنيين، وقد أكد هذا المعنى أستاذنا الدكتور محمود قاسم[1] حين قال:

" ... إن الاستعمار الفرنسي للجزائر استطاع بجبروته وعَسفه أن يفرض لغته على كثير من المثقفين في الجزائر وشمال إفريقية، غير أنه لم يستطع أن ينال كثيرًا من العقيدة الإسلامية، رغم ما بذله المختصون في شؤون الثقافة من محاولات لفصم العقلية الجزائرية، عن طريق تمجيد التصوف الكاذب، وإشاعة الخرافات والأباطيل، على نحو ما نراه في مؤلفات (لويس ماسينيون) الذي خصص حياته للكتابة في الحلاج[2]، فجعله صورة من

---

[1] العميد الأسبق لكلية دار العلوم جامعة القاهرة، ولكلامه في هذه القضية وزنه وقيمته، فهو من القلائل الذين حصلوا على دكتوراه الدولة في الفلسفة من السوربون، وكان رحمه الله من ألمع الدارسين للفكر العالمي. ثم هو أيضًا عايش هؤلاء المستشرقين وخبرهم عن قرب.

[2] مما يذكر بأسى أن عالمًا جليلاً نعده مستنيرًا أسرف على نفسه وعلى قرائه ذات حديث إلى مجلة إسلامية كبرى فمجد المستشرقين، وما أدوه للتراث. ولما أراد أن يستدل على قوله لم يجد إلا عمل (ماسنيون) في تراث الحلاج ودراسته، وهذا مما يشهد بما وقعنا فيه من تغرير وخداع.

المسيح في الإسلام، وأعتقد أن (ماسينيون) ما كان يُعنَى بالحلاج قدر عنايته بتنفيذ مخطط استعماري أحكم صنعه، فقد ملأ كتابه الضخم عن الحلاج بحشدٍ هائل من الخرافات والترهات والأباطيل، حتى يعمق الهوّة بين طائفتين توجدان بالجزائر: طائفة تتمسك بالقديم، فتنساق -حسب ظنه- إلى اعتقاد أن هذه الخرافات والهذيانات هي صميم الإسلام، وطائفة مثقفة بالثقافة الحديثة تتجه من جانبها إلى السخرية والزراية بهذا الإسلام الخرافي، بل من الإسلام كله"[3].

بل غير خافٍ أن (لويس ماسينيون) هذا كان مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون الشمال الإفريقي، والراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر، وخدم بالجيش الفرنسي خمس سنوات في الحرب العالمية الأولى[1].

ومن أرد ليلاً آخر فلينظر في تاريخ السودان، وكيف حاولوا أن يمزقوه طوائف وفرقًا (وطرقًا)، وكان أن تقدم أحدهم وأعلن إسلامه وتسمى باسم الشيخ أمين، ولبس ملابس شيوخ الطرق، وعاث في عقول الناس فسادًا وإفسادًا، ثم هالهم أن طلع عليهم ذات صباح في صحبة (غوردون) قائد جيش الاحتلال الذي استدعته إنجلترا ليخمد ثورة السودان سنة 1885م[2].

ولعل في تلك الواقعة التي أوردها الدكتور محمد محمد حسين في كتابه (حصوننا مهددة من داخلها)[3] وهي أن مندوب مؤسسة (روكلفر)[4]

---

(3) الدكتور محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، 7. وانظر الفصل الثاني من 35 – 70 .

(1) د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: 556.

(2) انظر بحثا لكاتب هذه السطور بعنوان (جنوب السودان .. دراسة تاريخية) صحيفة التربية.

(3) انظر: ص144.

(4) معلوم أنها مؤسسة تزعم أنها تقد مساعدات ومعونات لتنمية الدول المتخلفة.

الأمريكية كان يزور الجامعة السورية بدمشق، وقد تلكأ هذا المندوب، ولاذ بمختلف المعاذير، حين أعربت له الجامعة عن حاجتها إلى بعض المخابر والأجهزة العلمية، ولكنه لم يلبث أن أظهر البشاشة، ولم يتردد في قطع الوعود بالمساعدة حين انتقل الحديث إلى إنشاء معهد لدراسة التصوف الإسلامي".

ففي تلك الأمثلة ما يشهد بأي اتجاه يريدونه لنا، فحين تعلق الأمر بالمخابر والأجهزة العلمية التي تنقلنا إلى العلم وتنتج لنا منجزات العصر، كان التلكؤ والاعتذار، وحين كان الأمر متعلقًا بالتصوف كانت الاستعدادات جاهزة، والمنح مبذولة، والإمكانات متاحة، حيث ينقلنا ذلك الفكر إلى المتاهات، والخلافات، وتظل نمضغ أشياء لا تسمن ولا تغني من جوع.

وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير في أوجز لفظ أستاذنا الدكتور محمود قاسم: "لقد نقلنا المستشرقون إلى أرسطو، على حين نقلوا أنفسهم وقومهم إلى مناهج المسلمين وعلومهم"[4].

[4] أنور الجندي: المؤامرة على الإسلام، ص209.

ألف ليلة:

وإذا لم يكف كلٌّ ما قدمناه من أدلة على اتجاه النشر عندهم، وأنهم يوجهون إلى معرفتنا ثم إلى تمزيقنا وتدميرنا..

إذا لم يكف ذلك فهل أتاك نبأ "ألف ليلة وليلة"؟ تلك القصص الخرافية التي روّجوها فينا، حتى فشت منها فاشية في كل أنحاء العالم الإسلامي، ومن يتتبع طبعاتها المتوالية، ويتتبع الدراسات والبحوث التي أجريت بشأنها، يدرك أنهم جعلوها لنا زادًا، واتخذوها -هم- مصدر الدراسات للمجتمع الإسلامي في عصوره الناهضة الواعدة، فجعلوا ما في هذه الأقاصيص من خرافات هي الصورة الحقيقية للمجتمعات الإسلامية.

في إبان قيادتنا للإنسانية وريادتنا للبشرية، وأيام إسعادنا للدنيا وسعادتها بنا، جعلوا "ألف ليلة وليلة" هي الصورة (الحقة) لحياة المسلمين، حينما بسودون ويقودون بمنهج يبدو مستقيمًا في ظاهره، وفي حقيقته كل الالتواء، إذ قالوا:

"إن الأدب مرآة للمجتمع الذي يولد فيه، وهو وثيقة يحررها (الناس) بعيدًا عن السلطة، وعن المراقبة، حيث لا رغبة ولا رهبة، ولا مجاملة، وحيث يكتب من يكتب بنفسه لنفسه، لا يعنيه أن يطلع الناس على ما يكتب، ولا يدري أن الناس سيقرؤون ويدرسون ما كتب"[2]. كذا قالوا.

وبهذا الأسلوب وبهذا المنطلق صارت "ألف ليلة وليلة" معينَ الدارسين، منها يأخذون أخبار تاريخهم ومن وحيها يرسمون صورة أجدادهم وآبائهم، ومن هنا لم نعجب حينما كتب (أحدهم) مقالاً هائجًا في مجلة سيّارة من المجلات

---

[2] لسنا هنا لمناقشة هذا المنهج (الآن)، وهو الذي يبدو في ظاهره صائبًا، لكن وراء ذلك ألف تحفظ وتحفظ.

التي تدعو إلى (النهضة) وتحلم (باليقظة) لا نعجب إذ جعل عنوان مقاله (لئلا يعود هارون الرشيد)، وكتب كاتب واعٍ ممن يدري من أي أتت هذه السموم، يرثي لحاله، ويدعوه أن يعاودَ النظر في تاريخ أمته، وكان مقاله بعنوان (بل، ليعد هارون الرشيد).

ولا تعجب -إذا سمعتَ- كما سمعتُ أستاذًا جامعيًا ممن انعقد لهم لواء الريادة في مجال الفكر والتربية، وصياغة العقول، عقول شبابنا وأجيالنا المقبلة، صرخ ذات حديث عن التراث وهو يتأفف ويكاد يصاب بالغثيان: "أتريدوننا أن نعيد ليالي بغداد وهارون الرشيد؟!".

وآخر ذات يوم يقول وهو في نشوة الإعجاب بنفسه الراضي عن واقعه كل الرضا، شاعرًا أنه مفكر العصر والأوان، يقول: "كان هارون الرشيد إذا صعد على الدرج في قصره يصطف له صفان من العذارى على الجانبين، وهنَّ عاريات الصدور، متعطرات متبرجات بزينة، حتى يتكئ بيده على النهود".

هكذا تسري سموم "ألف ليلة وليلة" تقتل في بطء، وتفتك على مهل، ودون أن تترك أثرًا أي أثر. مثل ذلك النوع من السموم الذي صارت تستخدمه وكالات الاستخبارات (الحديثة) (المتحضرة) في التخلص من المناوئين.

ولو أردت أن تعرف مدى احتفاء هؤلاء بألف ليلة وليلة، فانظر في دائرة المعارف الإسلامية، لترى أنهم كتبوا عنها 35 صفحة كاملة، وأن نحو عشرين من عُتاتهم وأعلامهم أصدروا أبحاثًا عنها، ما بين دراسات وترجمات وتعليقات.

وبالتالي كان لنا مثل هذه العناية أو أشد، حتى صارت تقدم حلقات مسلسلة في الإذاعات مسموعة ومرئية، وكأن ما كان من كتابات ودراسات، وطبعات ومختصرات، لم يكف، فأرادوا بالسم أن يصل إلى النخاع.

وآخر أخبار ألف ليلة وليلة ما كتبه الأستاذ أحمد بهجت في صحيفة الأهرام على لسان والد طالبة في كلية الآداب بجامعة القاهرة يشكو من تكليف ابنته بدراستها، واطلاعها على ما فيها من فُحش يخدش الحياء، ويرجو (فقط) أن تتاح لأبنائنا طبعة (مهذبة) خالية من هذه (الألفاظ).

وإلى هنا والأمر طبيعي لا شيء فيه، ولكن الذي يلفت الانتباه أن الأستاذ الجامعي الذي أمر طلابه بهذا ثار وهاج وماج وسبَّ وشتم، واتهم من يحول بين (الطالبات) وبين هذه الـ(ألف ليلة وليلة) بكل ما فيها، وجعله جاهلاً بالتراث ولا يدري ما معناه وقيمته.

وهكذا تكون قد نجحت خطة القوم، في وضع (ألف ليلة وليلة) في بؤرة الشعور، أو في بؤرة التراث، إن صحَّ هذا التعبير.

الأغانـــي:

وفي كتاب الأغاني نموذج آخر لاتجاهات هؤلاء في النشر، فقد لقي هذا الكتاب من العناية والمبالغة في شأنه أكبر مما لقيته (ألف ليلة وليلة)، ولن تخطئ أصابع المستشرقين وراء ذلك، هذا الكتاب العجيب الغريب الذي ليس أعجب منه إلا حياة مؤلفه، فقد قالوا: "إنه أموي نسبًا، شيعي مذهبًا". وهذا لم يتفق لأحد سواه، أما وصف حياته وخلقه وسلوكه ففيه ما يقبح ذكره[1]، ويكفي أن علماء الرجال الأثبات قالوا في الحكم على روايته: "كذاب يأتي بالعجائب والغرائب يحدثنا وأنبأنا"[2].

هذا الكتاب وما لقيه من اهتمام ظهر أيضًا في العناية بطبعه، وإخراجه ونشره وإذاعته، ثم في الدراسات والأبحاث حوله، ثم تيسيره وإتاحته لكل المستويات على هيئة: تجريد الأغاني، وتهذيب الأغاني، ومختارات الأغاني. ثم أيضًا حلقات إذاعية ومسلسلات، حتى صار هو المصدر الأول (لكل) الدراسات الأدبية (تقريبًا).

وتعدّى ذلك إلى دراسة التاريخ، بل وتاريخ الفكر من فقه وتفسير وعقيدة، ومن ثم استشرى خطرُه وصار ما فيه من طرائف وغرائب أحكامًا ثابتة، وقضايا مقررة، يستند إليها من يطعنون في رواة السنة وفي فتاوى الأئمة، وآراء الفقهاء، وأحكام القضاة.

وصار وهو كتابٌ (للأغاني) أي يؤرخ لجانب من جوانب الحياة، هو جانب اللهو والعبث، صار ما فيه من استطراد وأخبار تابعة لأخبار اللهو والمجون،

---

(1) منذ فترة ونحن نعد بحثًا في هذا الموضوع، جعلنا عنوانه (كتاب الأغاني.. ذلك النهر المسموم)، لكن تجذبنا الشواغل وما يجد من قضايا هنا وهناك، فلا نفرغ له، فعسى أن يكون ذلك قريبًا إن شاءَ الله.

(2) ميزان الاعتدال، ولسان الميزان.

صار ذلك هو الأصل والأساس الذي يُبنى عليه، والمصدر الذي يُعتمد عليه عند الدارسين، وما ذاك إلا لأنه أقرب موردٍ إليهم، وأيسر شِرب بين يديهم، فمنه يعبون، وبه يرتوون ويروون، حتى شربت الأمة كلها أو كادت من هذا النبع المسموم.

هذه آثـــارهم

كثيرًا ما يمتن علينا هؤلاء المستشرقون وتلاميذهم بأنهم نشروا لنا أمهات المراجع، والكتب الأصول، فيذكر لنا نجيب العقيقي ومن لف لفَّه أنهم أخرجوا لنا ألوف الذخائر، مرتبة مفهرسة، تعتمد عليها جامعاتنا، ويرجع إليها علماؤنا، مثل:

1- السيرة النبوية: لابن هشام.

2- فتوح البلدان: للبلاذري.

3- الطبقات الكبرى: للواقدي.

4- معجم الأدباء: لياقوت.

5- نفح الزهور: لابن إياس.

6- الكامل: للمبرد.

7- نقائض: جرير والفرزدق.

8- تاريخ الطبري.

ولكن لست أدري لماذا لم يذكروا أنهم نشروا[1] مثل هذه الكتب:

1- **أخبار الحلاج الحسين بن منصور (ت309هـ -622م) نصوص قديمة جمعها (ماسينيون) مع ترجمة فرنسية.**

2- **الطواسين: للحلاج.**

3- **البلغة في الحكمة: لابن عربي.**

4- **طبقات الصوفية: السلمي أبو عبد الرحمن.**

5- **آداب الصحبة وحسن العشرة: للسلمي أيضًا.**

6- **التشوف إلى رجال التصوف: ابن الزيات الشاذلي يوسف بن يحي (627هـ -1230م).**

7- **الرسائل الصغرى: لابن عباد الرندي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت 792هـ).**

8- **الخلوة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين: الحارث بن أسد المحاسبي (234هـ -857م).**

9- **ذم الدنيا: لابن أبي الدنيا أبو بكر عبد الله بن محمد عبيد القرشي البغدادي (281هـ).**

10- **المتنقى من كتاب الرهبان: لابن أبي الدنيا أيضًا.**

11- **المسائل: للخراز أبو سعيد أحمد بن عيسى (286هـ -899م).**

---

[1] المقصود هنا هو كل ما نشرته مؤسساتهم ومطابعهم ومجلاتهم، سواء أكان من عملهم وتحقيقهم أم من عملنا نحن، بل إن ما يكون من عملنا هو في الواقع ثمرة لتوجيههم وأثر لفكرهم، وهذا أسوأ من عملهم المباشر.

12- رسائل الجنيد: الجنيد بن محمد البغدادي (297هـ).

13- مثلي الطريقة في ذم الوثيقة: للسان الدين بن الخطيب (776هـ - 1374م).

14- الأئمة المستورين: المهدي عبد الله.

15- الشافية: لأبي فراس شهاب الدين الإسماعيلي.

16- الهَفْت والأظلة: للمفضل بن عمر الجعفي. صاحب فرقة خاصة (المفضلية) من الشيعة الإسماعيلية.

17- تاج العقائد ومعدن الفوائد: لعلي بن محمد الوليد الراعي الإسماعيلي المطلق (612هـ).

18- الإيضاح: للراعي شهاب الدين الإسماعيلي.

19- الأقصار في فقه الشيعة: للنعمان بن محمد المغربي القاضي (ت 363هـ).

20- الحكم الجعفرية: الإمام جعفر الصادق ﷺ .

21- تفسير الإمام جعفر الصادق.

22- تنقيح الأبحاث للملل الثلاث: لابن كمونة اليهودي سعد بن منصور (683هـ -1284م).

23- رسالة راهب من فرنسة إلى المقتدر بالله: لراهب من فرنسة.

24- الديا سطرون أو الإنجيل الرباعي: ألف باليونانية ططيانس. ترجمة ابن الطيب البغدادي (435هـ).

25- مثالب عليّ بن أبي بشر (أبي الحسن الأشعري): للأهوازي، الحسن بن علي بن إبراهيم المقرئ (446هـ -1074م).

26- رسالة في الحكمين وتصويب أمير المؤمنين عليّ في فعله: للجاحظ.

27- النهج السديد والدر الفريد: لأبي الفضائل مفضل القبطي المصري (759هـ).

28- الأخلاق والانفعالات النفسانية: لابن سينا.

29- عيون الحكمة: لابن سينا أيضًا.

30- تعبير الرؤيا: أرطاميدوس، نقله إلى العربية حنين بن إسحاق 0260هـ - 873م).

31- الآثار العلوية: لأرسطوطاليس.

32- رسالة في ماهية العدل: مسكوبة أحمد بن محمد (421هـ).

33- الحيل (في الفقه): للخصاف أبو بكر أحمد بن عمرو (261هـ).

34- ديوان أبي نواس.

35- رسالة التربيع والتدوير: للجاحظ التي يسخر فيها من أحمد بن عبد الوهاب ويهزأ بعيوبه الجسيمة.

36- المفاخرة بين الجواري والغلمان: للجاحظ أيضًا.

تأمل في هذه الكتب [وهي نماذج من مائة وخمسة وعشرين كتابًا موضوع الدراسة في الإحصاء الذي أشرنا إليه]، وانظر كيف يلغون في موضوع الفرق ونشأتها، وكيف يلجون ويلحون ويلحفون في هذه القضية، ثم كيف يستميتون في إبراز هذه الاتجاهات الفكرية المتعارضة، وكأنهم يريدون أن يعرفوا التربة التي فيها نشأت والعوامل التي بها ازدهرت، حتى يهيئوا لها

دائمًا أن تظل حية متأججة، تشغل الأمة وتستهلك قواها، وتستحوذ على فكر علمائها، ولُب قادتها، فتضرب بينهم الفرقة، ويعشعش الخلاف، ومع الأسف كثير من ذلك قد كان.

القسم الثاني

خيـــانة المنهـج

ليسوا أمناء

إن أكثر ما يلوكه المسبِّحون بحمد المستشرقين هو الإشادة بدقتهم وتجردهم للبحث والعلم، وقدرتهم على التمحيص والتدقيق، وأنهم قادة هذا الميدان وفرسان هذا المجال. والمستشرقون أيضًا حرصوا كل الحرص على أن يُضفوا على أنفسهم هيبة العلم وقداسة محرابه، وأن يخفوا تحت شارته وردائه كل (أغراضهم) و(أهوائهم)، وأصبحت كلمات (الأكاديمي) (البحث العلمي) (المنهج) (حرية الرأي) (قيمة العقل) (الحيدة العلمية)... إلخ، أصبحت هذه الشعارات درعًا سابغًا توارت تحته مكنونات الصدور، وخفيات الضمائر وسموم الأحقاد. ولله درّ الإمام أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور حين قال: "إنه ما أسرَّ أحد معصية قط إلا ظهرت في آثار يده وفلتات لسانه".

ولو وضع تلاميذ المستشرقين وأتباعهم والذاكرين الشاكرين لهم، هذه الغشاوة عن أعينهم، وهذه الحجب عن بصائرهم لرأوا ما خلف هذه الأقنعة، وعلموا أن كلام المستشرقين في العلم والمنهجية وحرية البحث والحيدة العلمية مجرد أقنعة تتراكم وتتراكب إمعانًا في إخفاء ما تحتها. ولو نظرنا في عمل هؤلاء المستشرقين بمقاييس (العلم) و(المنهج العلمي) و(البحث الأكاديمي) لوجدناهم أول من يصفع هذا المنهج على قفاه، ويدوسه بقدميه، وهو في نفس الوقت رافعُ رايته، متقدم باسمه، ضارب بسيفه.

وإن القوم لعلمهم أن حرب الكلمة والفكر ليست كحرب السلاح والدم، في الثانية كلما تكاثفت الضربات، وتوالت الطعنات وتقدمت الجيوش تحرق وتدمر، كلما كان النصر.

لكن في حرب الكلمة والفكر (كلما كانت الضربة) أخف وأرق وألطف، وكلما تباعدت الضربات، وكلما كانت الضربات والطعنات مغلفة بغلاف كافٍ من الحقائق والصدق، كلما كان كذلك كان أوجع وأوقع وأخطر.

نماذج من تحريف النصوص وخيانة المنهج

جولد تسيهر:

يحمل المستشرق جولد تسيهر على السُّنَّة المطهرة حملة شعواء، ويحشد لما يقوله من التشكيك فيها، أدلة من أوهامه، وتزييفاته، وتحريفاته، ونكتفي بعرض نموذج واحد لهذه التحريفات، التي يزيف بها النصوص ويغيرها، لتحقق له هدفه.

وهو محاولة الطعن في رواة الحديث جملة، فيستعرض بعض ما يقوله علماء الرجال في الرواة، ويُخرجونه مخرج الجرح والتعديل، ليوهم بأن هؤلاء الرواة مجروحون كذابون.

- فمن ذلك قوله: "... ويقول وكيع عن زياد بن عبد الله البكّائي: إنه مع شرفه في الحديث كان كذوبًا، ولكن ابن حجر يقول في التقريب: ولم يثبت أن وكيعًا كذبه".

يريد جولد تسيهر بهذا أن يقول: إن زيادًا البكائي كان كذوبًا، مع علو منزلته في الحديث، وذلك بشهادة (وكيع) أحد أعمدة الجرح والتعديل، فإذا كان مثل زياد البكّائي (كذوبًا) فأي ثقة بالحديث والسنة؟

فلننظر أصل النص وكيف حرّفه جولد تسيهر.. جاء في التاريخ الكبير للإمام البخاري: "وقال ابن عُقبة السَّدوسي عن وكيع، وهو (أي زياد بن عبد الله البكائي) أشرفُ من أن يكذب"اهـ.

هذا هو النص كما ترى ينفي عن زياد الكذب أشدَّ النفي وأبلغه، فهو "أشرف من أن يكذب" أي أنه أبعد من الكذب بسجيته وفطرته، وطبعه وشرف نفسه، وعلو همته وسموّ نسه، فلو كان الكذب (حلالاً) غيرَ منهي عنه شرعًا ما كذب. كما روي عن بعضهم: "لو كانت خيانتُك حلالاً ما خُنتئك" مبالغة في بعد الخيانة عن طبعه ومجافاتها لشيمه.

ومع وضوح هذا النص يُحرّفه هذا المستشرق إلى "أنه كان مع شرفه في الحديث كذوبًا".

- ومن تحريفات جولد تسيهر أيضًا في نفس المجال، اتهامُه للإمام الزهري بأنه كان "مستعدًّا لأن يضع الأحاديث لبني أمية، وأن يكسوَ رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند الأمة الإسلامية، ولم يكن الزهري من أولئك الذين لا يمكن الاتفاق معهم، ولكنه كان ممن يرى العمل مع الحكومة، فلم يكن يتجنب الذهاب إلى القصر، بل كان كثيرًا ما يتحرك، في حاشية السلطان، بل إننا نجده في حاشية الحجاج عندما ذهب إلى الحج، وهو ذلك الرجل المبغَض ..." إلخ.

يريد بذلك أن يوهم القارئ أن الزهري كان تابعًا لذوي السلطة، يجري في فلكهم ويستمتع بالقرب منهم، في مقابلة ما يؤديه لهم من خدمات في تخصصه، أي العلم بالحديث، حيث يخترع لهم الأحاديث التي (تكسوَ رغبتهم ثوبًا دينيًا).

ولا يعنينا هنا تفنيد هذه التهم، فليس هذا مجاله[1]، ولكن يعنينا أن نضع أمام القارئ الصورة البشعة لتحريف النصوص وتزييفها، بقصد تنفير الناس من الإمام (الزهري) أحد أعمدة السنة وأركانها. فالزهري لم يكن مع الحجاج بن يوسف الثقفي في حاشيته حين حج، وإنما كان مع عبد الله بن عمر، حين اجتمع مع الحجاج.

وإليك النص على حقيقته كما ورد في تهذيب التهذيب لابن حجر:

"أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن الزهري، قال: كتب عبد الملك إلى الحجاج أن اقتد بابن عمر في المناسبك، فأرسل إليه -أي إلى ابن عمر- الحجاجُ يوم عرفة: إذا أردت أن تروح فآذِنّا، فراح هو وسالم، وأنا معهما...".

فالزهري إنما كان مع عبد الله بن عمر، حين اجتمعا بالحجاج، لا في معية الحجاج"[2].

ثم هو يتعامى أيضًا عن ورَع عبد الملك، وأمره للحجاج بالاقتداء بابن عمر، وعن طاعة الحجاج واقتدائه بابن عمر، ولكنه لا يرى شيئًا من ذلك، حتى يؤكد ما قرروه في أذهان تلاميذهم من مؤرخينا، عن ظلم بني أمية وفسادهم.

* ونموذج ثالث لتحريف هذا المستشرق نفسه، في نفس المعنى -أعني اتهام الإمام الزهري بالوضع (كبرت كلمة تخرج من أفواههم)- قال عن الزهري واستعداده لمسايرة الحكام، ووضع ما يرون من أحاديث:

---

(1) نحيل القارئ إلى الكتاب القيم (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) لنابغة الدعوة والإسلام المرحوم الدكتور مصطفى السباعي، ص187 – 235 [وعنه أخذنا مادة هذه الفقرات عن تحريف جولد تسهير].

(2) د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص223.

"قد كانت تقواه تجعله يشك أحيانًا ولكنه لا يستطيع دائمًا أن يتحاشى تأثير الدوائر الحكومية، وقد حدثنا مَعمر عن الزهري بكلمة مهمة، وهي قوله: أكرهنا هؤلاء الأمراء على أن نكتب (أحاديث).

فهذا الخبر يُفهم استعداد الزهري أن يكسوَ رغبات الحكومة، باسمه المعترَف به عند الأمة الإسلامية".

ونلاحظ أنه في نفس الوقت يحاول أن يظهر بمظهر الحيدة العلمية، الخالية من الغرض، فلا يحرم الزهري من وصف (التقوى) المعروف به، بل يُضفي على عبارته ما يجعلها أولى بالتصديق، فيجعل الزهري ذلك التقي الصالح يستشعر الندم أحيانًا، ويعترف بخطئه ويبرر لنفسه ذلك بأنه واقع تحت الإكراه، من السلطة. وهكذا بهذا الملمس الناعم يسوق تزيينه وتحريفه وينفثه في خفّة ومهارة.

وهو في كل ذلك يرتكز على ذلك النص المنقول عن (مَعمر) ليوهم القارئ بأنه يوثق ما يقول، ويملك دليلاً على ما يدّعي.

وهذا النص الذي نقله فيه تحريف متعمد بقلب المعنى رأسًا على عقب، وأصله كما عند ابن عساكر وابن سعد: "أن الزهري كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس، كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكراتهم ولا يتكلوا على الكتابة، فلما طلب منه هشام وأصر عليه أن يُملي على ولده ليمتحن حفظه كما تقدم، وأملى عليه أربعمائة حديث، خرج من عند هشام وقال بأعلى صوته: يا أيها الناس إنا كنا منعناكم أمرًا قد بذلناه الآن لهؤلاء، وإن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة (الأحاديث) فتعالَوا حتى أحدثكم بها، فحدثهم بالأربعمائة حديث".

هذا هو النص التاريخي لقول الزهري، وقد رواه الخطيب البغدادي بلفظ آخر، وهو: "كنا نكره كتاب العلم -أي كتابته- حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء، فرأينا ألا نمنعه أحدًا من المسلمين"ا.هـ.

ونترك التعليق لقلم المرحوم الدكتور مصطفى السباعي؛ إذ يقول:

"فانظر كم الفرق بين أن يكون قول الزهري، كما روى جولد تسيهر: أكرهونا على كتابة أحاديث". وبين أن يكون قوله كما رواه المررخون "أكرهونا على كتابة الأحاديث"، أو كما رواه الخطيب "على كتابة العلم". ثم انظر إلى هذه الأمانة العلمية حذف (ال) من (الأحاديث)، فقلبت الفضيلة رذيلة... حيث كان النص الأصلي يدل على أمانة الزهري وإخلاصه في نشر العلم، فلم يرضَ أن يبذل للأمراء ما منعه عن عامة الناس، إلا أن يبذله للناس جميعًا، فإذا (أمانة) هذا المستشرق تجعله ينسب للزهري أنه وضع للأمراء، أكرهوه عليها، فأين هذا من ذاك؟"[1].

[1] السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص221، 223.

ول ديورانت:

وإذا شئنا نماذج أخرى لتحريفاتهم، فإليك ما أورده (ول يدوارنت) في كتابه (قصة الحضارة)[1].

- **يقول عن النبي ﷺ: "وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء واجبات الحب والحرب، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره، وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميات ونوبات غريبة ... إلخ"[2].**

لا يعنينا أن نناقش القبح والفحش الذي كتب به المؤلف ما كتبه عن نبينا -عليه أفضل الصلاة والسلام، بأبي هو وأمي وبنفسي وبالناس أجمعين، فليس هذا مجال مناقشته، ولكن الذي يعنيني أن اضبط هذا المستشرق العلامة، متلبسًا بخيانة المنهج، وذلك قوله: "وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم" فهذا التعبير بـ(ظن) يريد به أن ينفي صحة الخبر، ليبرئ اليهود بالتالي من جريمة محاولة قتله ﷺ بالسم، ومن قتل الصحابي الجليل الذي أكل معه.

وهذا الخبر (خبر دس السم) موجود مشهور في مصادر السيرة النبوية المختلفة، فقد أورده ابن هشام في سياق غزوة خيبر، وأورده ابن سعد في

---

(1) قامت على ترجمة هذا الكتاب الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، وصدر على نفقتها في أكثر من ثلاثين جزءًا، وقد نقد هذا التصرف من الجامعة العربية الأستاذ الجليل محمد محمد حسين رحمه الله، وقال: "... إن اختيار هذا الكتاب للترجمة جريمة جريمة دبرتها الصهيونية الهدّامة المتخفية في زوايا اليونسكو ... إلخ. انظر (حصوننا مهددة من داخلها) ص187 – 189 لترى نقدًا موضوعيًا علميًا لهذا الكتاب.

(2) الجزء الثاني من المجلد الرابع، مسلسل رقم 13، ص46، سطر 7 – 10.

طبقاته، ورواه البخاري في غير موضع (176/5)، ومسلم (7/14-15) كلاهما من حديث أنس، وأحمد برقم (2885) من حديث ابن عباس، وأبو داود (146/1)، والدارمي (33/1) عن جابر.

وفيه اعتراف اليهود بدس السم وعفو الرسول ﷺ عن هذا الجرم الفظيع، مع موت الصحابي الجليل البراء بن معرور بهذا السم.

ومع ثبوت هذا الخبر ووفرة مصادره تأبى (الأمانة العلمية) و(الحيدة الأكاديمية) و(منهج البحث) على هذا المستشرق العتيد إلا أن يزيف ويحرّف، فينكر الخبر، وينسب الحادثة في إيجاز بارع إلى مجرد ظنٍّ ووهم.

- وعلى حين ينكر هذا الخبر الثابت، يحرف ويزيف خبرًا آخر زيد فيه وينقص منه.. فيقول في (ص77) وهو يتحدث عن الثراء الذي جاء المسلمين نتيجة للفتح:

"... وكان للزبير بيوت في عدة مدن مختلفة، وكان يمتلك ألف جواد، وعشرة آلاف عبد ...".

وهذا الخبر بهذه الصورة وبهذا الإيجاز يجمع ألوانًا وأفانين من التحريف، ففيه زيادة، وفيه نقص، وفيه تغيير وتبديل، وبيان ذلك:

أن الخبر ورد في المصادر المعروفة والمشهورة هكذا: "كان للزبير ألف مملوك يؤدون إليه خراجهم كل يوم، فما يُدْخلُ إلى بيته منها درهمًا واحدًا يتصدق بذلك جميعه". هكذا ورد الخبر في:

1) الإصابة لابن حجر العسقلاني (546/1).

2) أسد الغابة لابن الأثير (198/2).

3) البداية والنهاية لابن كثير (251/7).

4) صفة الصفوة لابن الجوزي (346/1).

5) الاستيعاب لابن عبد البر، بهامش الإصابة (583/1).

وبعض هذه المراجع من منشورات المستشرقين، أعني أن هذا الخبر بهذه الصبغة كان متاحًا له وبين يديه، (وهم يزعمون ويزعم تلاميذه أنهم يستقصون المراجع، ولا يخطون حرفًا إلا بعد جمع كل ما يتصل بموضوعهم)، ولكنه كما ترى ارتكب التحريفات الثلاثة الآتية:

1- زيادة ألف جواد من عنده، فقد أقحمها في الخبر، ولا وجود لها فيه أصلاً.

2- نقص الجزء الأخير من الخبر عن تصدق الزبير بخراج هؤلاء المماليك.

3- زيادة الألف مملوك إلى عشرة آلاف.

وهكذا تكون (الأمانة العلمية) و(النزاهة) و(الحيدة) و(التجرد) و(المنهج) إلى آخر هذا الركام من الأحجار التي يُلقمونها لمن يريد أن ينظر في عمل المستشرقين.

- وهاك نموذج آخر للتحريف وخيانة المنهج، وهو ما قاله هذا المستشرق عن هارون الرشيد، ذلك الخليفة العظيم، وعلاقته بالبرامكة. قال:

"وكان هارون يحب جعفر حبًّا أطلق ألسنة السوء في علاقتهما الشخصية، ويقال: إن الخليفة أمر بأن تصنع له جبة ذات طوقين، يلبسها هو وجعفر معًا، فيبدوان كأنهما رأسان فوق جسم واحد، ولعلهما كانا في هذا الثوب يمثلان حياة بغداد الليلية". (كذا).

انظر: مؤرخ الحضارة، عملاق الفكر، وربيب الأكاديمية، وسادن العلم، وأستاذ البحث والمنهج، ينكر الحديث الثابت والخبر المتفق عليه، الذي تردد في كل الكتب تقريبًا: عن دس اليهود السم للرسول ﷺ، ويضيف ويغير في خبر ثروة الزبير ﷺ ويأتي هنا بخبر (لقيط) لا يُدرى له أصل، فيحتفي به أيما احتفاء، بل يبني عليه من عنده، فيتخذ منه مناسبةً ليطعن بغداد دار السلام عاصمة الدنيا كلها في ذلك الوقت، فيقول: "ولعلهما كانا في هذا الثوب يمثلان حياة بغداد الليلية".. هكذا يقذف المجتمع كله بهذه الفرية، ولنا على هذا الكلام ملاحظتان:

1) الملاحظة الأولى: أن هذا الخبر على فرض صحته، كان الأولى به أن يعف عن ذكره، فلا (يلوث) به كتابه، ولا يؤذي به حياء قارئه، فهذا شأن العلماء والباحثين، لا سيما وأن الخبر في سياقه مقحم لا قيمة له، فإثبات قوة الصلة بين هارون الرشيد والبرامكة لا تحتاج إلى مثل هذا الفحش، الذي يعف عنه عامة الناس، بله كبار العلماء، (آهٍ متى يعود لأمتنا مكانها حتى تقيم حدود الله وتجلد هؤلاء القذفة؟!).

2) الملاحظة الثانية: أن هؤلاء المستشرقين دائمًا يدعون إلى العقل، وتحكيم العقل في الخبر مهما كانت صحة سنده، والسؤال للمستشرق العملاق: هل يقبل عقلُ عاقل (أي عاقل) بله عقل متحضر، بله عقل (مؤلف عالمي)؟ هل يقبل العقل أن يمشي رجلان في ثوب واحد؟ وكيف؟ وبأي سعةٍ يكون هذا الثوب؟ وأيهما يمشي أولاً؟ وأيهما يمشي ثانيًا؟ أم كان هناك إيقاع موسيقي يضبط حركتهما؟

وإذا تركنا هذا الإمكان (العلمي) فهل يقبل العقل أن حاكمًا في مثل منزلة هارون الرشيد كان فارغًا لهذا العبث، بل لهذا الفساد؟ وهل يعقل أن من يصل إلى هذا الحد من السقوط يمكن أن يكون صاحب هذا التاريخ الذي

زحم الدنيا من الغزوات والانتصارات والسفارات والبناء والتعمير، وقيادة (الدنيا كلها) في طريق الحضارة والنور، هذه الخطوات الفساح التي تمت في عهد الرشيد، هل يقبل عقلُ عاقل أن هارون الرشيد الذي كان يقود الجيوش بنفسه، ويقضي الشهور تلو الشهور في ملابس الميدان، هذا الذي أذلّ أباطرة الروم، ودفع عن ثغور المسلمين دسائسهم ومؤامراتهم، حتى مات مجاهدًا ودفن هناك في (طوس) على أطراف دولته، بعيدًا عن عاصمته و(قصره) مسيرة أيام، هل يعقل عاقل أن هذا المجاهد يصل إلى هذا المنحدر من السقوط؟ إلا في عقل هؤلاء المستشرقين.

بل إن جعفر البرمكي هذا كان قائدًا محنكًا ولا شك أن مؤرخ الحضارة قرأ عن أعماله الحربية العظيمة، وأن هارون الرشيد كان يرمي به في أخطر المآزق، ويلجأ إليه في أشق المضايق، فطالما قمع الفتنة، وردع العدوان، وسدّ الثغور، وحمى الحصون، وجال في أرض العدو وصال.

أفمثل هذين العظيمين الطاهرين المجاهدين يكون فارغًا لما يرمز إليه بهمزه ولمزه، ذلك المؤلف العالمي (الهمزة اللمزة)[1].

[1] نحن نعرف ويعرف (ول ديورانت) أكثر منَّا مَن قادة الفكر والرأي في بلاده يصدق عليهم يقينًا ما حاول أن يرمي به هارون الرشيد وجعفر، بل حاول أن يرمي به المجتمع المسلم في بغداد كلها، نحن نعرف ولكن نعفّ ونطهر قلمنا وكتابنا أن نذكر، ولا نهمز ولا نلمز.

فان فلوتن:

يعتبر (فان فلوتن) أحد المستشرقين المعنيين بالتاريخ الإسلامي، خاصة فترة الأمويين والعباسيين، ونستطيع أن نجد اسمه يتردد في كثير من الكتب الجامعية مرجعًا من مراجعهم يباهون به، ويفتخرون بالاعتماد عليه، وهو يغريهم بما ينسبه إلى الطبري، والبلاذري، واليعقوبي، والواقدي، ونحوهم، فيخيل للباحثين والدارسين أنه (وثّق) كل أخباره وأتى بها من منابعها، فيعجبون به ويطمئنون إليه.

السيطرة العربية:

لفلوتن كتاب بهذا الاسم، ونظرًا لأهميته في مجال التاريخ حظي بعناية من رجال التاريخ عندنا، فترجمه إلى اللغة العربية سنة 1934م الدكتور حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكي إبراهيم، وطبعت هذه الترجمة طبعتين، ثم ترجمة سنة 1980م مرة ثانية الدكتور إبراهيم بيضون، وفلوتن متخصص في تاريخ هذه الفترة حيث كانت أطروحته للدكتوراه في نفس الموضوع، ودراسته ومقالاته وأبحاثه تتجه كلها هذه الوجهة.

ومن هنا كان لكلامه وزن وقيمة، وكان (لتحريفه) لمصادر و(خيانته) للمنهج خطر عظيم، وكان هذا منه جُرمًا أي جرم.

ونحن نلتزم بهدفنا هنا، فلا يعنينا ما في الكتاب من تهجم على الإسلام والمسلمين، الذي لا يعدو أن يكون سبًّا وشتمًا (بأسلوب أكاديمي)، وإنما يعنينا هنا جريمته في حق (التراث) وكيف حرف المصادر والمراجع وزيفها.. وإليك هذا المثال:

- **جاء في (ص67) قوله: "وقد فرضت حالةُ الترف المتصاعدة هذه [يقصد الترف الذي أصابه المسلمون ثمرة للفتوح] تغطية دائمة**

لمواجهة متطلبات جديدة، واللجوء إلى الاستدانة كطريقة فذة من أجل إشباع رغباتهم ...".

ثم أحالنا على الطبري (2811/1). فماذا نجد في الطبري في هذا الموضع.

لم نجد في الطبري إلا خبرًا عن استدانة سعد بن أبي وقاص من بيت مال الكوفة، وكان خازن بيت المال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنهما- وكان سعد والي الكوفة، فاستقضى عبد الله بن مسعود ﷺ سعدًا، واشتدَّ في مطالبته، فاستمهله سعد فلم يقبل، وكان بينهما تلاوم، ووصل إلى عثمان بن عفان -رضي الله عنهم جميعًا- ملامهما معًا، وقال لهما: أنتما أصحاب رسول الله ﷺ فكيف تتلاحيان هكذا أمام الناس؟ وعزل سعدًا وأقرَّ عبد الله بن مسعود على عمله.

هذا هو ما ذكره الطبري، فكيف يفهم منه أيُّ قارئ، بلْهَ باحث ضليع، يقتعد مقعد الأستاذية؟

كيف يفهم من هذه الحادثة أن الاستدانة قد صارت ظاهرة في المجتمع؟ وأنها أصبحت وسيلة (فذة) لإشباع الترف الذي شاع فيه؟ كيف يفهم هذا؟ وبأي منطق يُقال هذا؟ وأي ترفٍ كان في المجتمع الكوفة سنة 26هـ.

ثم لو نظر إلى هذه الحادثة بعين مجردة، ودون تعمق ولا (منهج بحث) ولا... ولا... ألا يجد فيها فخرًا للإسلام والمسلمين؟ ألا يرى كيف لم يستطع الحاكم (والي الكوفة) أن ينال من مال الجماعة إلا قرضًا؟ ثم ألا يرى كيف كانت أمانة خازن بيت المال الذي لم يسعه السكوت عن (الوالي) واصطناع يد عنده، وأي (يدٍ)؟ بالتأجيل فقط طبعًا (لا بالتنازل)، ثم ألا يرى تلك الحرية التي وسعت (موظفًا) (صرافًا) (خزانًا) يلاحي الأمير ويناصبه ويغلظ له؟ أية (ديمقراطية) هذه؟ ألا تهز أعطافه؟ ألا تروعه؟ ألا تبهره؟

ثم ألا يتبادر إلى الذهن أن الحاجة والفاقة هي التي ألجأت سعدًا إلى الاستدانة؟ وهذا هو الواقع!! ففيم كان يستدين سعد في ذلك الوقت؟ وفي أي مجالٍ كان ينفق فيه في ذلك الحين؟ فقد كانوا يعيشون عيش الكفاف!!

ثم لو مدّ بصره قليلاً لقرأ في الأسطر التالية بقية القصة، وكيف أن سعدًا لشدة ألمه من عنف عبد الله بن مسعود وعدم رفقه وتأنيه به، رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم ربَّ السموات والأرض... فقاطعه عبد الله بن مسعود قائلاً: ويلك، قل خيرًا ولا تلعن. وخاف أن يدعو سعدُ عليه، فقال سعدٌ عند ذلك: أما والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك!! كلمات تقطر تقوى، وتندي بالحب والإخاء، ومواقف تنطق بالطهارة والتعفف.

ولو قرأ بقية الصفحة لوجد أن الأمير الذي تولى بعد سعد على الكوفة مكث خمس سنين، وليس على داره باب!! فأي ترف؟ وأي استدانة؟

ولكن هكذا بهذا التحريف وبهذا التزييف، استكره النص، واستنطقه ما لا ينطق به، وقال على الطبري ما لم يقل، وقلب الحسنات سيئات.

والأمثلة لا تنتهي، ولكننا نكتفي بنموذج آخر من كلام (فلوتن) في نفس الكتاب في نفس الموضوع..

جاء في (ص66): "ولقد أصابت الأسرُ المرموقة في الكوفة ثراءً فاحشًا كان مصدره (المغانم) والأعطيات السنوية، فكان الكوفي إذا ما ذهب إلى الحرب، يصطحب معه أكثر من ألف من الجمال، عليها متاعه وخدمه".

ثم نسب ذلك إلى الطبري (8106/2 س8).

وعلى البديهة نرفض أن يكون هذا الكلام في الطبري، فنحن نعرف الطبري ﷺ إمامًا عالمًا، مؤرخًا محدثًا فقيهًا، أو على الأقل (عاقلاً يدري ماذا يقول)، فكيف يذهب الجندي المقاتل إلى الميدان ومعه أكثر من ألف من الجمال

تحمل متاعه وخدمه؟ كيف يقاتل ومعه هذه الحاشية؟ وما يصنع بحمل ألف جمل من المتاع في الميدان؟ وإذا فرضنا أن الجيش كان عشرة آلاف مقاتل (وهذا تقدير متواضع) فكم عدد الجمال التي تحمل متاعهم؟ أليست أكثر من عشرة ملايين من الجمال؟ كيف يتحرك هذا الجيش؟ وأية طرق تسعهم؟ وأية مياه تكفيهم؟ وأية مراعٍ تطعمهم؟ وإذا سقط من الجيش بضعُ مئات أو آلاف قتلى في الميدان، فأين تذهب الملايين من الجمال التي تحمل أمتعتهم؟

لو قرأ أي عاقل هذا الخبر في أصح كتاب لاتَّهم صاحبه، أو على الأقل نسبه إلى الخطأ والوهم، ورفض أن يحكي هذا الكلام أو ينقله.

ولكن المستشرق العظيم في غمرة اجتهاده لإثبات أن فتوحات المسلمين كانت انتهابًا لخيرات وثروات البلاد التي فتحوها راح يجمع الأدلة من هنا وهناك، ويلويها ليًّا، ويزيفها تزييفًا، إلا أننا ما كنا نتوقع أن يخرج بتزييفه إلى حد اختراع هذه الخرافة، التي لا شك لم ينتبه إليها، فقد شهدت عليه لا له.

وهل لذلك أصل في الطبري؟

إن عبارة الطبري تقول على لسان (قيس بن الهيثم) أحد أصحاب مصعب بن الزبير قُبيل التحامه مع جيش عبد الملك بن مروان، يُرغّب أهل العراق في القتال، ويبين لهم حسن معاملة ابن الزبير لهم، ورفعه لمنزلتهم ومكانتهم:

".. والله لقد رأيتُ سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح إن أرسله في حاجة، ولقد رأيتنا في الصوائف وأحدنا على ألف بعير...".

فالقائل هنا يريد أن يوازن لأهل العراق بين معاملة خليفة الشام لأصحابه، فالسيد منهم يقف بالباب، ويعدها تكريمًا من الخليفة لو أرسله في حاجته، وبين إكرام حكامهم (الزبيريين) لهم، فالواحد منهم على ألف بعير، ومعنى على

ألف بعير، أي أمير ألف، وكان هذا أكبر لقب في الجيش بعد القائد العام، أي أنهم في كنف الزبيريين كلهم أمراء[1].

وهكذا نختم بهذا النموذج من تحريف المستشرقين وخيانتهم للمراجع والمصادر.

ولا يقولن أحد: إنكم بهذا تتصيدون للقوم أخطاءهم تصيدًا.. ومن الذي لا يخطئ؟ بحسبهم فخرًا ويكفيهم نبلاً أن تُعد عيوبهم، وأن تحصى أخطاؤهم، من ذا الذي ما ساء قط، ومن له الحسنى فقط؟ لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة.

والجواب:

أولاً: أن هذه ليست كبوات، وليست هفوات، بل هي عَمْد مع سبق الإصرار والترصد.

ثانيًا: أنها حقًّا قليلة لا تساوي شيئًا بالنسبة إلى ما في الكتاب من حقائق صادقة، ومعلومات قيمة، بل لما فيه أحيانًا من تمجيد لنا وثناء على تاريخنا، واعترافٍ بعظمة ديننا، ولكن ذلك لا يخدع إلا السذج والأغرار، فإن هذا أمر مقصود، مدروس وكيد محكم وتدبير خبيث، ذلك أنهم لو صارحونا بكل ما في جعبتهم من السهام، وما في فكرهم من سموم لكان لهم منا العناد والإعراض، بل المقاومة والدفاع والانتقام.

يقول العلامة أبو الحسن الندوي -مد الله في عمره- تحت عنوان (الإستراتيجية الدقيقة): "ومن دأب كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم

---

[1] انظر العسكرية العربية للواء الركن محمود شيت خطاب، كتاب الأمة، رقم 3، ص44.

غاية ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، ثم يقومون لها بجمع معلومات -من كل رطب ويابس- ليس لها أي علاقة بالموضوع، سواء من كتب الديانة والتاريخ أو الأدب والشعر، أو الرواية والقصص، أو المجون والفكاهة، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها، ويقدمونها بعد التمويه بكل جرأة، ويبنون عليها نظرية ليس لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم.

إنهم في أغلب الأحيان يذكرون عيبًا واحدًا، ويجوّدون لتمكينه في النفوس بذكر عشرة محاسن، ليست لها أهمية كبيرة، وذلك كي يقف القارئ خاشعًا أمام سعة قلوبهم وسماحتهم، ويسيغ ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن.

وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسون في كتاباتهم مقدارًا خاصًا من "السم" ويحترسون في ذلك، فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم، حتى لا يستوحش القارئ، ولا يثير ذلك فيه الحذر ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف.

إن كتابات هؤلاء أشد خطرًا على القارئ، من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء، ويصعب على رجل متوسط في عقليته أن يخرج منها أو ينتهي في قراءتها دون الخضوع لها"[1].

---

[1] الإسلام والمستشرقون: بحث ألقاه سماحته أمام المؤتمر الذي عقد بهذا الاسم (الإسلام والمستشرقون) بإشراف (دار المصنفين) بأعظم جره بالهند، في فبراير سنة 1982م، وكان لنا شرف المشاركة فيه. انظر مجلة البعث الإسلامي، رمضان سنة 1402هـ ص14، 15.

القسم الثالث

الاستشراق في الميزان

لِمَ كلُّ هذا الاهتمام؟!

تُقدّر الأبحاث والكتب التي كتبها المستشرقون عن الإسلام، في الفترة من مطلع القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، بنحو ستين ألف كتاب!! فَلِمَ كلُّ هذا الاهتمام؟؟

إن الاستشراق يرمي من وراء ذلك إلى غايتين:

أولاهما: حماية الإنسان الغربي من أن يرى نور الإسلام، فيؤمن به، ويحمل رايته ويجاهد في سبيله، كما كان من المسيحيين في الشام، ومصر، والشمال الإفريقي، وإسبانيا، من قَبْلُ. حين دخل الإسلام هذه الأصقاع، فدخل أهلها في دين الله أفواجاً، وصاروا من دعاة هذا الدين الحنيف، وحماته والمنافحين عنه.

وثانيتهما: هي معرفة الشرق، ودراسته، أرضه، ومياهه، وطقسه، وجباله وأنهاره، وزروعه، وثماره، وأهله، ورجاله، وعلمه وعلمائه، ودينه، وعقائده، وعاداته، وتقاليده، ولغاته و... و... كل ذلك لكي يعرف كيف يصل إليه، فقد ظلت دار الإسلام مرهوبة مخوفة، لم تستطع الصليبية المقهورة أن تحاول -مجرد محاولة- اختراقها لعدة قرون، وكانت المناوشات، والاحتكاكات على الثغور والأطراف تُحْسَمُ دائماً لمصلحة الإسلام والمسلمين، ولما حاولت الصليبية بجحافلها الغاشمة اختراق ديار الإسلام في مطلع القرن السادس

الهجري، رجعت بعد نحو قرنين (690-489هـ/679-478و. ر) من الزمان مقهورة مدحورة.

ولكنها ما فتئت تدبر وتقدر، وتحاول الالتفاف حول ديار الإسلام، لما استعصى عليها اختراقها، وكان الاستشراق هو رائدها الذي يرتاد لها الطريق. [هكذا كان من عمل المستشرقين، ارتياد ديار الإسلام و(معرفتها)، و(التعريف بها) حتى يضمن للزحف الصليبي الجديد أن يسير على هدى وبصيرة].

وإذا كنا نقول هذا استنتاجاً صحيحاً، من قراءة الوقائع والأحداث، ومما تنطق به جولات الصراع الذي دار ويدور بين الصليبية، وديار الإسلام. إذ كنا نقول هذا استملاءً من لسان الحال، حال التاريخ القريب والبعيد، فقد صدقه المستشرقون أنفسهم، وقالوه بلسان المقال، فهذا هو المستشرق الأمريكي (روبرت بين) يقول في مقدمة كتابه (السيف المقدس): إن لدينا أسباباً قوية لدراسة العرب، والتعرف إلى طريقتهم، فقد غَزَوا الدنيا كلَّها من قبلُ، وقد يفعلونها مرة ثانية، إن النار التي أشعلها محمد لا تزال تشتعل بقوة، وهناك ألف سبب للاعتقاد بأنها شعلة غير قابلة للانطفاء."

وبهذه الصراحة أو أشد منها -إذا كان هناك أشد منها- يأتي قول الأمير (كايتاني) ذلك الأمير الإيطالي الذي "جهز على نفقته الخاصة ثلاث قوافل، لترتاد مناطق الفتح الإسلامي، وترسمها جغرافيا وطبوغرافيا، وجمع كل الدوريات والأخبار الواردة عن حركة الفتح في اللغات القديمة... واستخلص تاريخ الفتح في تسعة مجلدات ضخمة بعنوان: (حوليات الإسلام) بلغ بها سنة أربعين هجرية... قال هذا الأمير الذي استهلك كل ثروته الطائلة في هذه الأبحاث، حتى أفلس تماماً، قال في مقدمة كتابه (حوليات الإسلام) هذه: إنه إنما يريد بهذا العمل أن يفهم سر المصيبة الإسلامية التي انتزعت من الدين

المسيحي ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض، لا يزالون حتى اليوم يؤمنون برسالة محمد، ويدينون به نبيّاً ورسولاً."

ويكتب المستشرق الألماني (باول شمتز) كتاباً يتناول فيه عناصر القوة الكامنة في العالم الإسلامي، والإسلام، فيسمى هذا الكتاب: (الإسلام قوة الغد العالمية) فلماذا كتب هذا الكتاب، وقام بهذه الدراسة؟، إنه لا يتورع أن يعلن صراحة ودون مواربة عن هدفه، الذي هو تبصير أوروبا الغافلة عن هذه القوة التي هي "صوت نذير لأوروبا، وهتاف يجوب آفاقها، يدعو إلى التجمع والتساند الأوروبي لمواجهة هذا العملاق، الذي بدأ يصحو، وينفض النوم عن عينيه، فهل يسمع أحد؟

هل من مجيب؟" بهذه العبارة التي ختمها بذاك النداء الصارخ، ينهي (شمتز) كتابه، والكتاب كلُّه تحكمه هذه الروح.

ولذلك حق للناشر الألماني أن يقول عن هذا الكتاب: "إنه يوضح الخطر المتوهج الذي يمر عليه الإنسان في أوروبا بكلِّ بساطة، وفي غير اكتراث فأصحاب الإيمان بالإسلام يقفون اليوم (1936 م قبيل الحرب العالمية الثانية) في جبهة موحدة معادية للغرب... وهذا الكتاب، هو نداء وتحذير يجب أن يلقى الاحترام الجدِّيَّ من أجل مصالح الغرب وحدها."

ويكرر هذا المعنى نفسه (ألبير شاميدور) في كتابه: (حمراء غرناطة) فيقول بعد أن تحدث عن عظمة الآثار الإسلامية في غرناطة: "... إن هذا العربي الذكي الشجاع الذي استطاع أن يجمع علم العالم في مائة عام، كما استطاع أن يفتح نصف العالم أيضاً في مائة عام، قد ترك لنا في (حمراء غرناطة) آثار علمه وفنه.

إن هذا العربي الذي نام نوماً عميقاً مئات السنين، قد استيقظ وأخذ ينادي العالم: ها أنذا أعود إلى الحياة.. فمن يدري قد يعود اليوم الذي

تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالعرب، فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية."

ثم يقول: "لست أدعي النبوة، لكن الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة، لا تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها."

ثم ينادي صارخاً: "أبيدوا أشباح العرب في (الحمراء)... أبيدوها قبل أن تبعث!! ثم يبالغ في الإنذار والتخويف، فيقول: "هيهات أن نستطيع إلى ذلك سبيلاً!!"

هكذا وبكلِّ وضوح يكشف القومُ عن أهدافهم، ولكن جماعة منا -عفا الله عنهم- ما زالوا حتى يومنا هذا، بل لحظتنا هذه، يصفون هذه الأعمال بأنها (علمية) (أكاديمية) (فكرية)... إلخ. ويذبحون في الثناء عليها المقالات والكتب ويلقِّنون أجيالنا الناشئة ذلك.

ولعل ما يفصل بيننا وبين قومنا في هذه القضية هو قول (روجيه جارودي) ذلك الفيلسوف، الذي كان زعيم المذهب الوجودي ومفسر طلاسم سارتر ضمير العصر -على حدِّ قول فلاسفتنا العظام- والذي كان مرشحاً لزعامة الحزب الشيوعي قال: "لم يكن الاستشراق حركة نزيهة منذ البداية، إذ كان الهدف منه تنفيذ مشروع يرمي إلى إدخال المسلمين في النصرانية."

حول تطوّر الدراسات الاستشراقية

بعض بني جلدتنا حينما نضع أمامهم هذه النصوص الناطقة بأهداف المستشرقين الشاهدة على بعدهم عن العلم والبحث، ومجافاتهم روح (الأكاديمية) والمنهج -يقول بعضنا هذا: "ما لكم تتشبثون بهذه العبارات، وتقفون عند هذه الأخبار ولا تتجاوزونها؟؟ إن ذلك كان في القرن التاسع عشر، وقبل القرن التاسع عشر، كان في أيام الاستعمار وطغيان الاستعمار، كان في أيام الصراع المحتدم بين الشرق والغرب، أما منذ القرن العشرين، فقد تطورت الدراسات الاستشراقية، وصارت (علمية) (منهجية) تبحث عن العلم المجرد، لذات العلم، والمعرفة، وانتهى عهد التهجم على الإسلام: نبيّه، وقرآنه، ورجاله، عقائده، وحضارته، لقد صارت الدراسات الاستشراقية آية في النزاهة، وقدوة في الالتزام بالمنهج العلمي، والإخلاص للبحث والتجرد للحقيقة!!!. كذا يقولون!!

وقد يكون هذا الكلام صحيحاً في بعضه، أعني أن أبحاث الاستشراق خلت من السبِّ والشتم، والتقبيح، والتشنيع على الإسلام، وأهله، فذلك صحيح في جملته، ولكن ذلك لم يكن بسبب التزام الاستشراق بالمنهج العلمي وقواعد البحث الأكاديمي، ولكن لسبب آخر، سنعرض له فيما بعد، أما المنهج العلمي الصحيح، والتجرد للبحث وخدمة الحقيقة فما زال -وسيظل- الاستشراق بعيداً عنها، لأسباب كثيرة بعضها راجع لطبيعة الاستشراق،

وهدفه، ونشأته، وبعضُها راجعٌ لعجزٍ طبعي فطري، في هؤلاء الأعاجم، يحول بينهم وبين امتلاك وسائل البحث في العلوم الإسلامية، وأدواته.

ونستطيع ببساطة ويسر، أن نُحيل هؤلاء، إلى ما عرضناه من شهادات المستشرقين وأقوالهم بألسنتهم، وهم من المعاصرين، في قرننا العشرين هذا، بل منهم من عاش إلى قريب من أيامنا هذه.

وإن لم يكف ما تقدم، فنضع أمام أعينهم، ما كتبه الدكتور (جلوور) في كتابه: تقدم التبشير العالمي، الذي نشره سنة 1960م قال: "إن سيف محمد والقرآن أشد عدو، وأكبر معاند للحضارة والحرية والحق، ومن أخطر العوامل الهدامة التي اطلع عليها العالم إلى الآن". وقال أيضاً: "القرآن خليط عجيب من الحقائق والخرافات، ومن الشرائع والأساطير، كما هو مزيج غريب للأغلاظ التاريخية، والأوهام الفاسدة، وفوق ذلك هو غامض جدّاً، لا يمكن أن يفهمه أحد إلا بتفسير خاص له."

ثم ينتقد شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً: "... كان محمد (صلى الله عليه وسلم)، حاكماً مطلقاً، وكان يعتقد أن من حق الملك على الشعب، أن يتبع هواه ويعمل ما يشاء، وكان مجبولاً على هذه الفكرة، فقد كان عازماً على أن يقطع عنق كلِّ من لا يوافقه في هواه، أما جيشه العربي، فكان يتعطش للتهديد والتغلب، وقد أرشدهم رسولهم أن يقتلوا كلَّ من يرفض أتِّباعَهم، ويبعد عن طريقهم."

ولعل تعبير المستشرق (ليوبولدفايس) الذي أسلم وتسمى باسم (محمد أسد) عن أزمة الأوروبي تجاه الإسلام، وأزمة المستشرق بصفة خاصة هو أوضح تعبير، وأصدقه حيث جاء من واقع الخبرة، والممارسة العريضة العميقة لكتابات المستشرقين، قال: "... لا تجد موقف الأوروبي تجاه الإسلام، موقف كره في غير مبالاة فحسب، كما هي الحال في موقفه من

سائر الأديان والثقافات، بل هو كره عميق الجذور، يقوم في الأكثر على صدور من التعصب الشديد، وهذا الكره ليس عقلياً فحسب، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية... إن الأوروبي لا يحتفظ تجاه الإسلام بموقف عقلي متزن، مبني على التفكير، بل حالماً يتجه إلى الإسلام يختل التوازن، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب، حتى إن أبرز المستشرقين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب، غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام.

ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام، لا يمكن أن يعالَج على أنه موضوع بحت في البحث العلمي، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته، إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام، الذي يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع، فهو مع اقتناعه شخصيّاً بإجرام موكله، لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء، من الفتور، اعتبارَ الأسباب المخففة.

ثم يقول بعدُ مبيِّناً أن الإسلام وحده، دون الثقافات الأجنبية المختلفة، وقفت منه الدراسات الغربية هذا الموقف: "... أما فيما يتعلق بالإسلام، فإن الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية. وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوروبا والعالم الإسلامي، غير معقود فوقه بجسر، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسيّاً من التفكير الأوروبي."

والواقع أن المستشرقين في الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية، وكانت الصورة المشوَّهة التي اصطنعوها عن تعاليم الإسلام وتاريخه، مدبَّرةً على أساس يضمن التأثير في موقف الأوروبيين من (الوثنيين) غير أن هذا الالتواء العقلي، قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير، ولم يبقَ لعلوم الاستشراق هذا عذر من

حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها. أما تحامل المستشرقين على الإسلام، فغريزة موروثة وخاصة طبيعية، تقوم على المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية، بكلِّ ما لها من ذيول في عقول الأوروبيين الأولين."

هكذا أصبح تحامل المستشرقين على الإسلام غريزة موروثة، وخاصة طبيعية، تزول المؤثرات، والدوافع، والأسباب، ولا تزول هذه الغريزة، فكيف يقال: إن الدراسات الاستشراقية قد تطورت؟؟

لمن يكتب المستشرقون؟

لم نكن بحاجة إلى هذا العناء، وتناول هذا الموضوع -موضوع المستشرقين وأعمال المستشرقين- أصلاً، لو أن بني قومنا عرفوا لمن يكتب المستشرقون، لو أن المثقف المسلم، وصاحب القلم المسلم، ورجل الفكر المسلم، عرفوا لمن يكتب المستشرقون، لو وقفوا من هذه الأعمال الاستشراقية الموقف الصحيح، فتركوها لمن كتبت له.

لم يكن المستشرقون -في تقديري- يتوجهون بهذه الأعمال، وبهذه البحوث كلِّها إلا إلى المثقف الغربي، يخافون عليه، ويحصنونه، من أن يقع في إسار الإسلام، ديناً وفكراً وحضارة، كان الاستشراق -بهذه الأعمال- يريد أن يضرب ستارا كثيفا، من التشويش، والتشويه، بين المثقف الأوروبي وبين الإسلام.

ومن هنا نجدهم في كتاباتهم الأولى، يكتفون بالسب والشتم، في الإسلام وفي رسول الإسلام -صلى الله عليه وسلم، وتنزه عما قالوا- واختلاق الأكاذيب عن المسلمين، ونظام حياتهم ومجتمعاتهم، ثم تطورت هذه الدراسات رويداً رويداً، فبعد أن كانت في أول فجة ساذجة، صارت تتجه إلى الترتيب والتنسيق والاستدلال، وأخذت في التعمق، وارتداء ثوب البحث، وطيلسان الأكاديمية، ولكنها ظلت، وفية لهدفها الأول، لم تنسه ولم تتخلَّ عنه، وهو تحصين الإنسان الأوروبي، ضد الإسلام.

ويظن بعضٌ من أبناء أمتي حين يرون هذا التغيّر، أن هذا تطور في الدراسات الاستشراقية، وتغيير للأهداف، وتنازل عن الأحقاد، وأن القوم ثابوا إلى الإنصاف، فكفوا عن السب، والشتم، والتقبيح، ومالوا إلى العلمية، والتزموا بالموضوعية.

ولكن الواقع أنه ليس في الأمر، موضوعية، ولا منهجية، ولا اعتدال، ولا استقامة وإنما كان هذا التغير، أو التطور في الأساليب فقط، وكان تغيير الأساليب ضرورة أملتها الظروف وواقع الحال، كان لا بد من تغيير الأساليب لتتلاءم وتتواءم مع المواطن الأوروبي المسيحي نفسه المخاطب أصلاً بالدراسات الاستشراقية.

فحيثما كان العصر عصر أمنيّة وجهالة، وهمجية، كان يكفيهم أن يكتبوا لهم سبّاً وشتمّاً، في الإسلام ورسول صلى الله عليه وسلم، وفي المسلمين، حتى يقبِّحوه ويشوِّهوه، في أعينهم، وينفروهم منه. أما مع التطور والاستنارة، ومعرفة هؤلاء الأوروبيين بالمسلمين والإسلام، نتيجةً للاحتكاك في القتال، والتجارة والانتقال، فكان لا بد من أن يغير هؤلاء أساليبهم، حتى تنطليَ على عقول الأجيال الجديدة، وكان تغيير الأساليب يتلاءم، ويتواءم، مع درجة معرفة هؤلاء عن الإسلام والمسلمين.

يقول المستشرقين الإنجليزي المعاصر "مونتجومري وات" وهو يتحدث عن (مآخذ أخلاقية مزعومة) ادعاها الغربيون في كتاباتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم. فقال: "ليس بين كبار رجال العلم رجل كثر شانئوه كمحمد (صلى الله عليه وسلم) ومن الصعب فهم السب الذي دعا إلى ذلك. فقد كان الإسلام خلال قرون عدة العدوَّ الأكبر للمسيحية، ولم تكن المسيحية في الحقيقة على اتصال مباشر بأية دولة أخرى منظمة توازي الإسلام في القوة، فلقد هوجمت الامبراطورية البيزنطية، بعد أن فقدت مقاطعاتها في سورية

ومصر، وآسيا الصغرى، بينما كانت أوروبا الغربية مهددة في إسبانيا وصقلية.

وأخذت الدعاية الكبرى في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية -حتى قبل أن توحِّد الحربُ الصليبية اهتمامَ المسيحيين حول طرد العرب من الأرض المقدسة -تعمل على إقرار فكرة "العدو الأكبر" في الأذهان، ولو كانت تلك الدعاية تلك خالية من كلِّ موضوعية.

وأصبح محمد "أمير الظلمات" حتى إذا ما حلَّ القرن الحادي عشر، كان للأفكار الخرافية المتعلقة بالإسلام والمسلمين، والقائمة في أذهان الصليبيين تأثير يؤسف عليه.

فقد أُنذر الصليبيون بأن ينظروا أسوأ الأمور من الأعداء، ولما وجدوا بين هؤلاء الأعداء كثيراً من المحاربين الفرسان، شعروا بالريبة من السلطات الدينية المسيحية.

ولهذا حاول بطرس الراهب أن يعالج هذا الوضع بإذاعة معلومات أصدق عن محمد والديانة التي يدعو إليها.

وقد حدث تطور كبير في هذا السبيل، ولا سيما في قرنين من الزمن، وإن ظل كثير من الأوهام عالقاً في الأذهان.

فها هو يكشف عن سر هذا (التطور) "وجدوا (أي الصليبيون) بين هؤلاء الأعداء (أي المسلمين) كثيراً من المحاربين الفرسان (أي النبلاء والأبطال) فشعروا بالريبة من السلطات الدينية المسيحية". هكذا اطَّلع مسيحيو أوروبا في أثناء الحرب الصليبية، على صورة للمسلمين، غير الصورة التي صورها لهم رهبانهم (المستشرقون) فحاول بطرس الراهب (من قواد الحروب الصليبية ومشعلي أوارها) أن يعالج هذا الوضع، (الشعور بالريبة

من السلطات الدينية المسيحية) بإذاعة معلومات أصدق عن محمد (صلى الله عليه وسلم) والديانة التي يدعو إليها."

وبعد ذلك، ومع ذلك، نجد من (الأساتذة الكبار) من يبشر فينا بتطور الدراسات الاستشراقية والتزامها بالمنهج، وأصول البحث، وتجردها ونزاهتها!!

المستشرقون لا يكتبون لنا

قلنا: إن الاستشراق بأبحاثه وأعماله (كلها) موجه إلى المواطن الأوروبي، نعم إلى المواطن الأوروبي، فما كان المستشرقون يطمحون، بل يحلمون أن تكون أعمالهم هذه توجيهاً وتعليماً للمسلمين، بله مرجعاً يعتمدون عليه، وموئلاً يلوذون به، ومصدراً يرتوون منه، ومنبعاً ينهلون منه، في دراساتهم، وأبحاثهم، وكتبهم، فتقوم صروح الفكر والثقافة على أعمال المستشرقين، فتكون على شفا جرف هارٍ، ينهار بنا في وهدة السقوط والضياع، والاستلاب الحضاري.

لم يكن يطمح ولا يحلم المستشرقون بشيء من هذا، ولا دون هذا، فلم تشهد الدنيا قط في تاريخها، رجلاً غريباً عن الأمة -أية أمة- صار مسموع الكلمة في أدب هذه الأمة، وتاريخها وحياة مجتمعها، بل ودينها.

لم تشهد الدنيا في تاريخها ما شهدته أمتنا "أرأيتم قط رجلاً واحداً من غير الإنجليز أو الألمان مثلاً، مهما بلغ من العلم والمعرفة، كان مسموع الكلمة في آداب اللغة الإنجليزية، وخصائص لغتها، وفي تاريخ الأمة الإنجليزية، وفي حياة المجتمع الإنجليزي، يدين له علماء الإنجليز بالطاعة والتسليم؟

أليس غريباً أن يكون غير الممكن ممكناً، في ثقافتنا نحن وحدها، دون سائر ثقافات البشر، قديمها وحديثها؟ غريب عجيب لا محالة". ولكنه مع الأسف كان وحدث في ثقافتنا وحدها.

لقد نبغ من أبناء أمتنا نابغون، في اليونانيات، واللاتينيات، والفرنسية والإنجليزية، أترى لو أن أحدهم كتب في آداب هذه اللغات، أو في شؤون مجتمعها أو في تاريخها، أو عقائدها، يُصبح مرجعاً، ومصدراً لأهلها؟ أترى لو أن أستاذ الجيل، أو عميد الأدب العربي، كتبا في تاريخ اليونان، وفي آداب فرنسا، يصبح لكتابتهما مكان بين المصادر، والمراجع، وتجد من يقول برأيهما، ويعتقده، ويتبناه؟؟

"لكنها صروف الدهر، التي ترفع قوماً، وتخفض آخرين، قد أنزلت بنا، وبلغتنا وبأدبنا، ما يُبيح لمثل هؤلاء المستشرقين أن يتكلموا في شعرنا وأدبنا، وأن يجدوا فينا من يستمع إليهم، وأن يجدوا أيضاً من يختارهم أعضاء في بعض مجامع اللغة العربية.

وأعجب من هذا اتخاذهم أساتذةً نجلس منه مَجْلِسَ التلمذة، ونأخذ عنهم العلم فيما يختص بتاريخنا، ومجتمعاتنا، بل وديننا ولغتنا.

المنهج عند المستشرقين

هنا سيكون عرضنا لبعض الأمثلة والنماذج من كتاباتهم، لا يقصد مناقشتها، أو ردّها، أو تفنيدها، وإنما فقط للاستدلال بها، على مدى منهجية كتابات القوم، واحترامهم لأصول البحث وقواعده.

ونستطيع أن نوجز هذه الملامح والسمات المنهجية، التي رأيناها، وإن شئت قلت: المآخذ المنهجية، على النحو الآتي:

أ- الخضوع للأهواء وعدم التجرد للبحث:

شرط المنهج الأول، وأساسه، التجرد من الأهواء، وعدم الوقوع تحت سلطانها، فلا يميل الهوى بالباحث لإثبات ما يوافق هواه، ونفي ماعداه، فما بالك بمن يحدد الغرض أولاً، والنتيجة سابقاً، ثم يبدأ في البحث عما يؤيدها، والتنقيب عما يثبتها، فهذا ليس علماً، وليس بحثاً، مهما كانت صورته، ومهما كان شكله، وهذا هو ما يعمله المستشرقون.

فالمستشرق يبدأ بحثه وأمامه غاية حددها، ونتيجة وصل إليها مقدَّماً، ثم يحاول أن يثبتها بعد ذلك، ومن هنا يكون دأبه، واستقصاؤه الذي يأخذ بأبصار بعضنا، وهو في الواقع يدأب، ويشقى ويكد، لينحِّيَ ما يهدم فكرته ويكذب رأيه، ويُخفي ويطمس ويتجاهل كلَّ ما يسوقه إلى نتيجة غير التي حددها سلفاً، ومن هنا تأتي أبحاثهم عليها مسحة العناء والاستقصاء، ولكنه عناء الالتواء، واستقصاء مَنْ يجمع من لا شيء شيئاً، ويصنع من الهباء بناء، ويبني من الغبار صرحاً.

هذا الداء المبير، والخطر الوبيل، حذر منه علماؤنا الأقدمون منذ أكثر من ألف عام، حين وضعوا قواعد المنهج، وحددوا أركانه وشروطه فتردد في كتبهم ونبهوا عليه في كثير من مؤلَّفاتهم، وخصوا من القواعد بكتب ورسائل خاصة، فمن قبل ألف عام قرأت الدنيا للحسن بن الهيثم المتوفى سنة 430 هـ .419 و.ر/1038م. فيما وضعه من قواعد المنهج قوله في كتابه (المناظر): "... ونجعل غرضنا في جمع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل، لا اتِّباع الهوى، ونتحرى، في سائر ما نميزه وننتقده، طلبَ الحق، لا الميل مع الآراء، فلعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي به يثلج الصدر، ونصل بالتدريج

والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة، التي يزول معها الخلاف، وينحسم بها مواد الشبهات."

هكذا، استعمال العدل، والبعد عن الهوى، وطلب الحق، وعدم الميل مع الآراء شرطٌ للوصول إلى اليقين والحقيقة!! فهل كان المستشرقون يبغون اليقين ويريدون الحقيقة؟؟

ب- عجز المستشرقين عن تمثل الثقافة واللغة:

إذا كان من شروط المنهج البراءة من الأهواء، كما ذكرنا آنفاً، فإن من شروطه أيضاً إدراك اللغة والإحاطة بأسرارها، أسرار اللغة التي يبحث الباحث في آدابها وعلومها، وفنونها، وكذلك إدراك (الثقافة) والإحاطة بسرها، (ثقافة) الأمة التي يريد أن يبحث في تاريخها، وعقائدها، وعمرانها وحضارتها، وعقائدها ودينها.

وذلك لازمٌ للمستشرق وغير المستشرق.. هذه الشروط لا يختلف في شأنها أحد قط في كلِّ ثقافة، وفي كلِّ أمة. فإذا كان لا يُعَدُّ كاتباً أو باحثاً أو عالماً من أبناء اللغة، وأبناء الثقافة أنفسهم؛ إلا من اجتمعت له هذه الشروط، فإذا عَرِيَ منها لم يكن أهلاً للنزول في ميدان (المنهج) فإذا فعل، فهو متكلم لا أكثر، ثم لا يُلْتَفَتُ إلى قوله، ولا يُعْتَدُّ به عند أهل البحث والعلم والكتابة.

والمستشرق فتى أعجمي، ناشئ في لسان أمته وتعليم بلاده، ومغروس في آدابها وثقافتها.. ثم يشدو طرفاً من علوم العربية وآدابها، يأخذها من أعجمي مثله، ثم يخرج على الناس بعد ذلك (مستشرقاً)، يُفتي في اللسان العربي، والتاريخ العربي... غاية ما يمكن أن يحوزه (مستشرق) في عشرين أو ثلاثين سنة... أن يكون عارفاً معرفةً ما بهذه (اللغة) وأحسن أحواله عندئذٍ أن يكون بمنزلة طالب عربي، في الرابعة عشرة من عمره، بل هو أقل منه على الأرجح، أي هو في طبقة العوام، الذين لا يَعْتَدُّ بقولهم أحد في ميدان (المنهج).. على أن اللغة نفسها هي وعاء (الثقافة) فهما متداخلان.. فمحال أن يكون محيطاً أيضاً بثقافتها، إحاطة تؤهله للتمكن من (اللغة)، فمن أين يكون (المستشرق) مؤهَّلاً لنزول هذا الميدان؟

وإذا كان أمر (اللغة) شديداً لا يسمح بدخول المستشرق تحت هذا الشرط اللازم للقلة التي تنزل ميدان (المنهج) و(ما قبل المنهج) -فإن شرط (الثقافة)

أشد وأعتى، لأن الثقافة سرٌّ من الأسرار الملثمة في كلِّ أمة من الأمم، وفي كلِّ جيل من البشر، وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور، معارف كثيرة لا تحصى متنوعة أبلغ التنوع، لا يكاد يحاط بها، مطلوبة في كلِّ مجتمع إنساني، للإيمان بها أولاً من طريق العقل والقلب، ثم للعمل بها، حتى تذوب في بنيان الإنسان، وتجري منه مجرى الدم، لا يكاد يحس به، ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه، انتماءً يحفظه ويحفظها من التفكك والانهيار. وهذه القيود الثلاثة: (الإيمان) و(العمل) و(الانتماء) هي أعمدة (الثقافة) وأركانها. التي لا يكون لها وجود ظاهرة محقق إلا بها، وإلا انتقض بنيان (الثقافة) وصارت مجرد معلومات ومعارف، وأقوال مطروحة في الطريق، متفككة لا يجمع بينها جامع، ولا يقوم لها تماسك، ولا ترابط، ولا تشابك..

وبديهي، بل هو فوق البديهي، أن شرط (الثقافة) بقيوده الثلاثة، ممتنع على (المستشرق) كلَّ الامتناع، بل هو أدخل في باب الاستحالة من اجتماع الماء والنار في إناء واحد.

وذلك أن (الثقافة) و(اللغة) متداخلتان تداخلاً لا انفكاك له، ويترافدان ويتلاقحان بأسلوب خفي غامض كثير المداخل والمخارج والمسارب، ويمتزجان امتزاجاً واحداً غير قابل للفصل، في كلِّ جيل من البشر، وفي كلِّ أمة من الأمم... فأنَّى للمستشرق أن يحوز ما لا يحوزه إلا مَنْ ولد في بحبوحة اللغة وثقافتها منذ كان في المهد صبيّاً."...

ونسوق هنا نماذج لما وقعوا فيه من أوهام غليظة نتيجة لهذا العجز المهين، من ذلك شرح كارترمير، (الأحداث) بالغوغاء، وتفسير كازانوفا، لفظ (أُمِّي) بشعبي، ومن ذلك ما وقع فيه المستشرق الألماني (براجستراسر)، في تحقيق كتاب مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه، حيث صحَّف كلمة أبي عمرو

بن العلاء: "فقد تربع في لحنه" وجعلها: "فقد تربع في الجنة، مع أن المقام مقام ذم."

وإذا كانت هذه الأخطاء لا يترتب عليها كبير خلل في المعنى أو قضايا علمية فهناك ما يترتب عليه فساد في المعنى، وأحكام شرعية، فمن ذلك ما قاله (م. وات) من تفسير الغض من البصر بأنه التواضع، حيث قال: "وقد نزلت آيات أخرى تدعو المؤمنات إلى التواضع: {وَقُل لِّلْمؤْمنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا...} [سورة النور: من الآية 31]

جـ- التعسف في التفسير والاستنتاج:

فإذا تركنا شروط المنهج، وما رأيناه آنفاً، من أن المستشرق محروم منها وجدنا ولوناً آخر، بل ألواناً من خيانة المنهج، لا يرجع الأمر فيها إلى القصور والعجز، بل يرجع إلى فقد شرط المنهج الأول، أعني ما ذكرناه آنفاً من البراءة من الهوى، وسنعرض طرفاً من أفانين خيانة المنهج، ونبدأ بما سميناه (التعسف في التفسير والاستنتاج) فهنا لا يكون اللفظ العربي مستعصياً مستغلقاً على المستشرق، ويمكنه -لو أراد- أن يفهمه فهماً صحيحاً، ولكنه يميل مع هواه فيُنطِق النص بما يتفق وهدفَه، ويشبع هواه، والأمثلة على ذلك كثيرة -ككل خيانات المستشرقين- لا تقع تحت حصر، ولكن يكفي أن نذكر مثالاً للمستشرق (المنصف) (المعتدل) م. وات. وذلك حين يفسر أمر القرآن الكريم للمؤمنين بالاستئذان قبل الدخول لبيوت غير بيوتهم، وأمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر (سور النور: الآية 27، 30، 31) يفسر ذلك بانحطاط في مستوى الأخلاق، كان النبي صلى الله عليه وسلم، بحاجة إلى السمُوِّ به.

فمن أين أتى بهذا الاستنتاج؟؟ وهل تسمح النصوص القرآنية الكريمة بأن يُستنتج منها هذا الاستنتاج العجيب؟

هل إذا كانت الأخلاق "غير منحطة" يُسمح بدخول بيوت الآخرين دون استئذان؟

هل إذا نصح هذا المستشرق ابنه وهو يؤدبه ويعلمه ألاَّ يدخل بيتاً غير بيته، إلا بعد أن يستأذن، أيدل ذلك (على انحطاط مستوى أخلاق ابنه)؟؟ وعلى انحطاط مستوى أخلاق مجتمعه؟؟

د- التفسير بالإسقاط:

ونعني بهذا إسقاط الواقع المعاصر المعيش، على الوقائع التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ، فيفسرونها في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة وما يعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم، فيتناولون بيعة أبي بكر يوم السقيفة، وكأنهم يحللون انتخابات الرئاسة في أمريكا، بألاعيبها وفضائحها الحزبية، ويفسرون خروج طلحة والزبير على علي رضي الله عنهم جميعاً، بأنه خوف على ثرواتهما التي جمعاها، في أثناء الفتوح، ومن غنائم الفرس، والروم، وكأنهم ينظرون إلى الصراع بين شركات الصلب، أو شركات السلاح، ومؤسساتهم الرأس مالية الضخمة، التي تصارع للتأثير على السلطة، وعلى صناعة القرار، مع أن أول وأبسط قواعد تفسير النصوص، وفهمها، هو المعرفة التامة لروح العصر، ولما يسمونه، جو النص، ثم المعرفة بحياة قائل النص: نشأته وثقافته، وحياته، وأعماله، هذه المبادئ يتعلمها الشادون المبتدئون، في الصفوف الأولى من التعليم المتوسط.

ولكن هؤلاء المستشرقين يغضون الطرف عن قواعد المنهج، بل يدوسون قواعد المنهج ويمتهنونها.

فمن عرف تاريخ أبي بكر، وعمر، وأبي عبيدة، وحياتهم، وكيف جاهدوا في الله بأموالهم وأنفسهم وكيف كانت الآخرة أمام أعينهم، وكيف كانت حقارة الدنيا في نظرهم، كيف يستطيع أن يفسِّر ما دار يوم السقيفة، على أنه اتفاق بين الثلاثة، على أن يُعين عمرُ وأبو عبيدة أبا بكر، على شرط أن يعهد بها أبو بكر إلى عمر، ثم يعهد بها عمرُ إلى أبي عبيدة!! إن هذه صورة منتزعة من واقع انتخابات عصرنا ومؤامراته، ويستحيل على من عنده أدنى معرفة برجال صدر الإسلام، وبروح العصر، ومشاعر المسلمين يوم

السقيفة، أن يقبل هذا التفسير الذي يُسقطونه من داخل أنفسهم على وقائع تاريخنا.

وكيف يقال: إن طلحة والزبير كانا يخشيان على أموالهما، وهما من هما تضحيةً وبذلاً في سبيل الله، إن الطراز من الرجال الذين كانوا لا يبالون أيقعون على الموت أم يقع الموت عليهم، كيف يخافون على عرضٍ زائل؟ وقد ظهر كذب هذا التفسير وزيفه، إذ ثبت بأصدق الروايات، وأوثقها، أن الزبير يوم مات لم يكن ماله يكفي لسداد ديونه.

ومن طرائف التفسير بالإسقاط، أو الإسقاط في التفسير، ما رأيناه عند المستشرق الإنجليزي (منتجومري. وات) إذ فسر ما كان من خلوة الرسول صلى الله عليه وسلم، في غار (حراء) قُبيْلَ البعثة، بأنه كان هروباً من حرِّ مكة، وابترادا في رأس الجبل، جبل حراء، حيث كان محمد (صلى الله عليه وسلم) فقيراً لا يستطيع السفر إلى الطائف، مثل أغنياء قريش!!

فهو هنا أمام حدث قديم، وقع في مكة، منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، ولكنه يفسره ويعلِّله، بروح عصره هو، ويُسقط عليه مشاعر واتجاهات، وعادات وقيم عصره، الآن، يفسره وفي ذهنه، رحلات المصطافين في عصرنا هذا، وكيف يُعِدُّون لها، وينفقون في سبيلها، يفسر هذا الحدث وفي ذهنه قمم الجبال المعشوشبة، التي يكسوها الجليد والبرد.

ولم يكلف نفسه، بل لم يستطع أن يدرك واقع المجتمع المكي، آنذاك، بل واقع الجوِّ في مكة، والفرق بين درجة الحرارة في شعاب مكة ورأس جبل حراء، وهل حقاً تنخفض الحرارة في رأس (حراء) عند الغار -وهو مازال موجوداً إلى الآن -انخفاضاً ملموساً يجعل محمداً -صلى الله عليه وسلم -يلجأ إليه، لم يذكر أحد قط ممن كتبوا عن مكة وأهلها آنذاك، أن الفقراء كانوا يصطافون بالجبال، والأغنياء كانوا يصطافون بالطائف.

إن الرواية الصحيحة تقول: "إنه صلى الله عليه وسلم حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يذهب إلى غار حراء يتحنث فيه، ويظل به الليالي ذوات العدد، قبل أن يعود لأهله ليتزوَّد لمثلها."

فكيف يختلي بجبل هو مصطاف الفقراء من أهل مكة، أم يا ترى كان محمد "صلى الله عليه وسلم"، هو الفقير الوحيد في مكة، فخلا له جبل حراء؟؟ أم تراه هو الوحيد الذي أدرك السرَّ الخطير، وهو برودة رأس الجبل؟ وضن به على غيره، فلم يشاركه في خلوته بالجبل أحد؟؟

أم يا ترى كان في مكة جبال بعدد فقرائها، لكل فقير -لا يقدر على السفر إلى الطائف- جبل؟؟

ثم أين تقع الطائف من مكة؟؟ ألم يقرأ أن محمداً صلى الله عليه وسلم، ذهب إلى الطائف ماشياً بعد أكثر من عشر سنوات، أي بعد أن كبرت سنُّه، حينما اشتد إيذاء قريش وعنادها، ليعرض الدعوة على شيوخ ثقيف؟؟

ثم كيف يستقيم له هذا الفهم العجيب، والتفسير الغريب، (العجز المالي) مع حديثه في كتابه هذا نفسه ص 75-73 عن زواج محمد صلى الله عليه وسلم، من خديحة وثراء خديجة، فهل كانت خديجة (رضى الله عنها) عاجزة عن إعطاء محمد صلى الله عليه وسلم، ناقة يسافر عليها إلى الطائف، مع نفقات الإقامة. ثم لماذا لم يسأل نفسه عن السبب في عدم انتقال خديجة إلى الطائف، لتصطاف بها مثل أثرياء مكة؟؟

هـ- منهج العكس:

أما منهج العكس وهو أن ينظر الباحث في النصوص والوثائق، والروايات، فإذا قالت شيئاً، فعليه أن يدرك أن الصواب هو عكسه تماماً.

ولقد كان المستشرق (لامانس) اليسوعي من أكثر المستشرقين، اعتماداً على منهج العكس، وهذه نماذج من ثمار استخدامه لهذا المنهج:

"إن مما لا شك فيه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم، كان شجاعاً، لقد كان يقود الجيوش في الغزوات، ولم تطر نفسه شعاعاً في أية واحدة منها، ولا يوم أحد -وقد ابْتُلِيَ المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً- ولم تَهُلْه كثرة الجيوش المعادية في غزوة الخندق، يوم أن زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، ولم ترعه النبال كالمطر، يوم حنين.. ومع ذلك، فإن (لامانس) يصفه بعدم الشجاعة، ثم يحاول أن يعمم الحكم على العرب قاطبة، يقول:

"زعموا أن العربي يتسم بالشجاعة، بل لقد عللوا النجاح في الفتوح الإسلامية الأولى بما يمتاز به العربي من صفات ومزايا، ولكني أتردَّد كل التردُّد في قبول هذا الرأي المبالغ فيه كلَّ المبالغة.. إن شجاعة العرب إنما هي من نوعٍ غير سامٍ."

ويرد (ناصر الدين دينيه) هذه الفرية، مؤكداً شجاعة العرب مذكِّراً إياه بمواقفهم في الحرب العالمية، ومساندتهم للحلفاء (قوم لامانس) وأحاله على شهادة القواد الغربيين للمقاتلين المسلمين، فقال:

"والرد على القسيس اللبناني بسيط، ويكفي أن نُسديَ إليه هذه النصيحة، وهي أن يقرأ آلاف الشهادات التي نالها من قيادة جيوش الحلفاء الجنودُ المسلمون الشجعان، الذي حاربوا دفاعاً عما اعتقدوه حقاً، فكانوا من

عوامل النصر في الحرب الكبرى، لقد أثارت فرق الهجوم منه إعجاب العالم أجمع، وإن هذه الشهادة في أسلوبها العسكري الموجز صرح شامخ مجيد، يسجل روح التضحية والبطولة لدى العرب المغاوير.

وأعجب نموذج، وأبلغ صورة لمنهج العكس هذا عند (لامانس) أنه إذا أراد أن يؤيد دعواه في قضية من القضايا، ثم بحث حتى أعياه البحث فلم يجد خبراً لا صحيحاً ولا سقيماً يؤيد ما ادعاه، فإنه لا يتراجع، وإنما يمضي في جرأة نادرة -على حدِّ تعبير دينيه- ويستمر متشبثاً بدعواه، ويقول: "إن هذا أمر عُنِيَ رجال الحديث بكتمانه" هكذا إذا لم يجد الخبر، فهو حقيقة ولكن تواطأ الرواة على كتمانه.

وليس هذا الفساد المنهجي (منهج العكس) قاصراً على (لامانس) وأضرابه من متعصبة المستشرقين، بل إننا نلحظه عند كثيرين منهم، ولكن بدرجات متفاوتة، فمن ذلك مثلاً، ما نراه عند (ول. ديورانت) في كتابه: "قصة الحضارة" حيث لا يعجبه أن المؤرخين في كلِّ ما كتبوه "صوروا هارون الرشيد -أولاً وقبل كل شيء- في صورة الرجل الورع المتمسك أشد التمسك بأوامر الدين.. وأنه كان يحج إلى مكة مرة كل عامين، وأنه كان يصلي في كلِّ يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة" ا.هـ

فهو يرى، أن هذه الصورة غير الصورة المعروفة، عن هارون الرشيد، حيث صوَّرته قصة "ألف ليلة وليلة" في صورة الملك المرح، ولكن هذا (المرح) أغضب المؤرخين، فصوروه في صورة الورع المتمسك بالدين... إلخ.

فكلُّ المؤرخين في نظر (ديورانت) كاذبون مزيِّفون، ساءهم مرح هارون الرشيد، فاخترعوا له صورة (معكوسة) (عكس الواقع).. وهكذا يفعل (منهج العكس) عند علماء الاستشراق وفي أبحاثهم.

(وبعد)؛

فما زال أمام القول مجال فسيح، لعرض نماذج لخيانات المستشرقين والغربيين للمنهج العلمي -فيما يكتبونه عن الإسلام والمسلمين- وأدلة ناطقة تشهد بأن هذه الكتابات لا يصح أن تسمى علماً، ولا بحثاً.

الخاتمـــــــة

الآن تستطيع أن تقول بالنتائج التالية بعضها بالتحقيق وبعضها بالتقريب:

1) إن حجم عمل المستشرقين في مجال نشر التراث، وتحقيقه لا يكاد يُذكر[1].

2) إنهم عُنوا بالنشر في اتجاهين:

- تراث الفرق، والإحن، وكل ما يؤدي إشاعته ونشره إلى تجديد النزاع بكل صوره الفكري، والمذهبي، والسياسي.
- كل ما يُفقدنا الثقة بماضينا وأمجادنا، ورجالنا، وقادتنا، ويكفيهم ألف ليلة والأغاني.

3) إنهم يلبسون طيلسان البحث العلمي، ويرفعون لواء (الأكاديميات) وهم مضلِّون، خائنون للعلم و(المنهج) و(الأمانة) و(طرق البحث).

4) إن عنايتهم بالتراث كانت وما زالت وستظل من باب (اعرف عدوَّك) فهذه الكتب (التراثية) هي الخرائط والصور، لعقولنا وعواطفنا ومشاعرنا واتجاهاتنا واهتماماتنا وحبنا وبغضنا وغضبنا ورضانا فهي

---

(1) مازلنا في حاجة إلى دراسة استقصائية شاملة، لا تقوم على (العينات) والنماذج كالتي قمنا بها.

المفاتيح التي عرفوا بها كيف يخططون لتدميرنا ثقافيًا واجتماعيًا وفكريًا وعلميًا، بعد ما حطمونا عسكريًا وحربيًا وسياسيًا.

5) ومن أعجب العجب أن تجد أمة -مثل أمتنا- تشكر وتمجد وتعظم أمر سارقي وثائقها لمجرد أنهم احتفظوا بها، أو قدموا إليها صورة منها، وعهدي بالدولة الواعية أنها تفضل حرق وثائقها من أن تقع في يد أعدائها.

والله أسأل أن تعود أمتنا إلى مجدها وعزها، وأن يعيننا على قول الحق ويجعله خالصًا لوجهه.

فهـرس المحـتويات

القسم الأول: المستشرقون والتراث 5

مدخل إلى القضية 7

اتجاهاتُ النشر عِندَ المستشرقين........................ 11

الاتجاه الفكري للمستشرقين:................................ 21

ألف ليلة 27

الأغاني 31

هذه آثارهم 33

القسم الثاني: خيانة المنهج: 39

ليسوا أمناء 41

نماذج من تحريف النصوص وخيانة المنهج: 43

جولد تسيهر.. 43

وِل ديورانت 49

فان فلوتن 55

القسم الثالث: الاستشراق في الميزان 61

لم كل هذا الاهتمام؟! 63

حول تطوّر الدراسات الاستشراقية 67

لمن يكتب المستشرقون؟ 71

المستشرقون لا يكتبون لنا 75
المنهج عند المستشرقين: 77
الخضوع للأهواء وعدم التجرد للبحث 79
عجز المستشرقين عن تمثل الثقافة واللغة 81
التعسف في التفسير والاستنتاج 85
التفسير بالإسقاط 87
منهج العكس 91
الخاتمــة 95

من أعمـال العـلاّمــة المـحقق
عبد العظيم محمود الدّيب
رحمه اللّه تعالى

(1348 – 1431 هـ – 1929 – 2010 م)

أولاً : في التحقيق وأصول الفقه – (من تراث إمام الحرمين الجويني)

1) **البرهان في أصول الفقه. في مجلدين كبيرين**

- طبعة أولى – مطابع الدوحة الحديثة – على نفقة أمير دولة قطر – 1399 هـ
- طبعة ثانية – توزيع دار الأنصار بالقاهرة – 1401 هـ
- طبعة ثالثة – إخراج جديد، مع مزيد من التحقيقات والتعليمات – دار الوفاء- بالمنصورة 1412 هـ -
- طبعة رابعة – دار الوفاء بالمنصورة 1418 هـ - 1997 م.

2) **الغياثي (غياث الأمم في التياث الظلم)**- من أجلّ ما كُتب في الفكر السياسي الإسلامي

- طبعة أولى – مطابع الدوحة الحديثة – على نفقة دولة قطر– 1400 هـ
- طبعة ثانية – القاهرة – توزيع مكتبة وهبة، ودار التراث، ودار الوفاء – 1401 هـ
- طبعة ثالثة – جدة – دار المنهاج للنشر والتوزيع – 1431 هـ

3) **الدرة المضية فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية**

- صدر القسم الأول عن إدارة إحياء التراث الإسلامي بالدوحة 1406هـ 1986م.
- القسم الثاني (يصدر قريباً إن شاء الله).

4) **نهاية المطلب في دراية المذهب 21 مجلد**

- طبعة أولى – جدة – دار المنهاج للنشر والتوزيع – 1428هـ
- طبعة ثانية – مصححة ومزيدة – جدة – دار المنهاج للنشر والتوزيع – 1431 هـ
- طبعة ثالثة – جدة – دار المنهاج للنشر والتوزيع (يصدر قريباً إن شاء الله).

5) **مسائل عبد الحق بن هارون الصقلِّي لإمام الحرمين وإجابته عنها. (يصدر قريباً، إن شاء الله).**

6) **إمام الحرمين: (حياته وعصره)**

- طبعة أولى – دار القلم بالكويت – 1401 هـ - 1981م.

7) **فقه إمام الحرمين (خصائصه وآثاره)**

- طبعة أولى -إدارة إحياء التراث الإسلامي بالدوحة – 1405 هـ - 1985م.
- طبعة ثانية – دار الوفاء – مصر 1409 هـ - 1988م.
- طبعة ثالثة – دار المنهاج – جدة 1432هـ - 2011م.

8) **رعاية العرف عند إمام الحرمين:**

- نشر عام 1982م. حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة قطر – العدد الثاني

- طبعة أولى –دار دون – القاهرة – 2012

9) الغزالي وأصول الفقه

- نشر ضمن الكتاب التذكاري (الإمام الغزالي) الذي أصدرته جامعة قطر، احتفالاً بالذكرى المؤوية التاسعة لوفاته (1406 هـ - 1986م).

10) العقل عند الأصوليين.

- بحث علمي منهجي يثبت أن ما يتردد في كتب الأصول من أن المعتزلة والشيعة يحكمون العقل، لا أصل له.
- حولية كلية الشريعة – جامعة قطر – العدد الخامس – 1408 هـ 1987 م.
- طبعة ثانية – دار الوفاء بالمنصورة 1412 هـ 1992م.

11) العقل عند الإمام الغزالي.

- حولية كلية الشريعة بجامعة قطر – 1408 هـ - 1988م.
- طبعة أولى –دار دون – القاهرة – 2012

12) الإمام الغزالي كما عرفته.

- قدّم أصل هذا الكتاب إلى ملتقى الفكر الإسلامي الحادي والعشرين بالجزائر (1408 هـ - 1987م).
- طبعة الأولى – دار دون– القاهرة– 2012

ثانيا: في التاريخ والثقافة و الحضارة (التأليف):

13) أبو القاسم الزهراوي – أوّل طبيب وجرّاح في العالم.

وتُعتبر هذه أول دراسة عن هذا النابغة، نابغة الطب والإسلام (أعدت سنة 1963م).

- دار الأنصار بالقاهرة – 1399 هـ 1979م.
- طبعة ثانية – دار القلم بالكويت – 1404 هـ - 1984 م.
- طبعة ثالثة – دار دون– القاهرة– 2012

14) فريضة الله في الميراث والوصية.

- طبعة الأولى – دار الأنصار بالقاهرة – 1398هـ - 1978م.
- طبعة الثانية – دار الأنصار بالقاهرة – 1400 هـ - 1980م.
- طبعة الثالثة – مكتبة الأقصى بالدوحة – قطر – 1405 هـ - 1985م.

15) المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي.

- طبعة الأولى - سلسلة كتاب الأمة – العدد رقم 27 – ربيع الآخر 1411 هـ.

16) نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي:

- طبعة الأولى -دار البشير – عمان – الأردن – 1414 هـ - 1994م.
- طبعة الثانية – توزيع: مكتبة وهبة، دار الوفاء – 1418 هـ - 1997م.

17) الإخوان المسلمون والعمل السري والعنف (قراءة منهجية علمية).

- طبعة الأولى -دار الوفاء – المنصورة – 1426 هـ - 2006م.
- طبعة ثالثة – دار دون– القاهرة– 2012

18) ببلوغرافيا كاملة لأعمال المستشرقين في نشر التراث (مع دراسة تحليلية).

- يصدر قريباً إن شاء الله.

19) جنوب السودان وصناعة التآمر ضد ديار الإسلام.

- نشر عام 1964م.
- طبعة الأولى – دار الأنصار بالقاهرة – 1413 هـ - 1993 م.
- طبعة الثالثة – مكتبة الأقصى بالدوحة – قطر – 1405 هـ - 1985م.

20) الرسول – صلى الله عليه وسلم – في بيته.

- أحد بحثين قدما للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة (الدوحة – محرم 1400 هـ - نوفمبر 1979م).
- صدر ضمن بحوث المؤتمر – المجلد الخامس – بحث رقم 4.
- طبع مستقلاً – دار الوفاء بالمنصورة – 1412 هـ - 1992م.

جمع السنة وتصنيفها بواسطة الحاسب الآلي:

- قُدّم للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة (الدوحة – محرم 1400 هـ - نوفمبر 1979م).
- صدر ضمن بحوث المؤتمر – المجلد السادس – بحث رقم 8، (ترجم إلى التركية، بواسطة الدكتور عبد الله آيدنلي

أستاذ الحديث بجامعة أتاتورك، ونشرته مجلة ديانة – مارس سنة 1984م).

21) **(الكومبيوتر) حافظ عصرنا. (نحو موسعة شاملة للحديث النبوي الشريف).**

- مشروع مفصل لدور الكومبيوتر في إنجاز موسوعة السنة المشرفة، وموسوعة الرجال، والجمع المستقصي للسنة.
- قُدّم إلى مجلس إدارة مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر في 1403/8/24هـ 1983/6/5م، ثم نوقش في المؤتمر العالمي الرابع للسنة والسيرة المنعقد بالأزهر (1404 هـ - 1984 م).
- حولية مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر – 1405 هـ - 1985م.
- طبع مستقلاً – دار الرسالة ببيروت – 1409 هـ - 1989م.

22) **المستشرقون والتاريخ الإسلامي:**

- مؤتمر (المستشرقون والإسلام الأول) بأعظم جرى – الهند – فبراير 1982م.
- مجلة البعث الهندية – عدد خاص بأبحاث المؤتمر، رمضان وشوال 1402 هـ يوليو وأغسطس 1982م.

23) **لغة القرآن... ماذا يراد بها؟**

- ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر بالجزائر – 1404 هـ - 1984 م مع مقدمة عن الصحوة الإسلامية والغزو الثقافي.

- نشر ضمن أبحاث المؤتمر.

24) الزبير بن العوام (الثروة والثورة)

- بحث نموذجي لما نرجوه وندعو إليه من تحقيق أخبار التاريخ الإسلامي.
- حولية كلية الشريعة – جامعة قطر – العدد الثالث – 1404 هـ 1984م.
- مكتبة ابن تيمية بالبحرين 1406 هـ - 1986م.

25) المستشرقون والتراث.

- بحث منهجي إحصائي عن قيمة عمل المستشرقين بالتراث.
- حولية كلية الشريعة – جامعة قطر – 1405 هـ - 1985م.
- مكتبة ابن تيمية بالبحرين – 1406 هـ - 1986م.
- دار الوفاء بالمنصورة 1408 هـ 1988م.
- دار الوفاء بالمنصورة 1413 هـ 1992م.

26) المنهج عند المسترقين.

- قُدّم إلى ندوة (البحث العلمي في الدراسات الإسلامية).
- كلية الدعوة – طرابلس – ليبيا – يوليو 1989م.
- نشر بحولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة قطر – 1409 هـ 1989م.

27) الحوار والتعددية في الفكر الإسلامي.

- حولية كلية الشريعة بجامعة قطر – 1411 هـ - 199م.
- طبع بدار الوفاء بمصر – رقم 20-1417 هـ - 1996م.

28) **التبعية الثقافية (وسائلها ومظاهرها).**

- قدم إلى ندوة الثقافة العربية – الواقع وآفاق المستقبل – الدوحة – قطر – شوال 1413 هـ - إبريل 1993م.
- طبع بدار الوفاء – مصر – رقم 19-1417 هـ - 1996م.

29) **علم اختلاف الفقهاء المفهوم – الاسباب – النشأة – المنهج.**

- ندوة تدريس القانون واحتياجات المجتمع القطري – شعبان 1416 هـ ديسمبر 1995م.

30) **من أخبار يزيد بن معاوية: تمحيص وتدقيق وإنصاف.**

- مجلة مركز بحوث السنة والسيرة – العدد التاسع 1418 هـ 1997م.

31) **من التصحيف والتحريف.**

- مجلة آفاق التراث والتربية – مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث – العدد السادس عشر – شوال سنة 1417 هـ فبراير 1997م.

32) **من أخبار عثمان مع أبي ذر: تمحيص وإنصاف.**

- (يصدر قريباً).

صديقنا قارئ هذا الكتاب

قبل أن تغلق الكتاب دعنا نتفق على عدة أشياء، واثقون من أنها سترضيك..

دعنا نتفق على أن القراءة درّة أنعم الله بها علينا، ووهبنا إياها، تلك اللذة المميزة -والتي لم يمنحها للبعض- وهي لذة الاستمتاع بالقراءة.. نحن نقرأ ونتعلم، نقرأ ونُخَبَّر حكايات الآخرين، نقرأ ونختصر خبرات العالم في بضع صفحات، نقرأ ونتفق، نقرأ ونختلف، نقرأ ونقرأ ونقرأ... لكن الأكيد! أننا نقرأ ونستمتع..

لذلك،،،

لا تدع تلك اللذّة النادرة تقف عندك، لا تدع هذا الكتاب يتوقّف بين يديك -بعد الانتهاء منه- فهناك الكثيرون ممن لم يقرأوه، أو لا يمتلكون ثمنه، أو من لم يسمعوا عن هذا الكتاب.. خبّرهم عن تلك اللذة الشيقة، والمتعة النادرة التي لا يعلمونها.

مرِّر هذا الكتاب إلى أهل بيتك، صديقك، جارك، زميلك في العمل، أو حتى شخص ما في المواصلات العامة لم تره من قبل !!

كن سبيلا في إسعاد الآخرين بهذا الكتاب، ولا تتعجّب عندما تجد كتاباً لم تقرأه من قبل يأتيك من أحدهم وهو يخبرك بدوره عن متعة القراءة بعد ذلك بحين من الزمن.

دَارْ دَوِّنْ